تاريخ الحب

للكاتبة الفرنسية مارسل تينير

ترجمه بتصرف

الاستاذ ابراهيم المصري

عنيت بنشره
دار الهلال بمصر
١٩٣٧

تاريخ الحب

للكاتبة الفرنسية مارسل تينير

ترجمه بتصرف

الاستاذ ابراهيم المصرى

عنيت بنشره

دار الهلال بمصر

١٩٣٧

ان الحب العاطفي كما نفهمه اليوم، لم يولد مع الانسان كالجوع والظمأ والخوف والرغبة الجثمانية المحضة . والواقع ان الانسان الأول فى عصر المغاور والكهوف ، كان يخضع لغريزته الأصلية وكان يرضى عن نفسه متى امتلك الأنثى امتلاكا طبيعياً عاديا . وكانت المرأة الأولى ذات الثدى المترهل والخاصرة العريضة تعيش تحت حماية الرجل وتطلب هـذه الحماية مدفوعة الى ذلك بمتاعب الجنين الذى تحمله فى أحشائها أو بمتاعب الحمل والوضع والارضاع . وكانت خاضعة للرجل كل الخضوع ، لا تتبرم بعبوديتها ولا تشعر بها ، لأن الرجل كان شبيها بالحيوانات لا يضطهد امرأته ولا يعذبها ولا يستبد بها إلا متى فكر فى اختطافها وحيازتها لنفسه

والحقيقة ان اجتراء الزوج على التنكيل بامرأته وضربها ، لم يظهر إلا بعد ان قطعت الانسانية شوطا من الحضارة

ونحن ما نزال نشهد حتى اليوم أزواجا يضربون زوجاتهم فيقول البعض منا إن هؤلاء الأزواج قد عادوا الى حياة الفطرة وارتدوا الى قانون الطبيعة ، ولكن هذا محض خطأ . لأن النمر لا ينكل بالنمرة والأسد لا يستبد باللبؤة ، والشاهد على النقيض أن القطة العاشقة هى التى تخدش بأظفارها أنف القط وهى التى تنكل به لتستثيره وتجذبه اليها

وعليه ففى غضون الزمن الذى قضاه أسلافنا فى المغاور يحيون حياة الفطرة ، كانت العلاقات بين الجنسين بسيطة غير معقدة

وكانت تتلخص فيما يأتى : المطاردة ثم الامتلاك ثم الحمل ثم الوضع

ولم يكن فى وسع الرجل والمرأة أن يتشبها بالحيوانات فينفصل الواحد منهما عن الآخر بعد الانتهاء من تربية أولادهما وبعد أن يشب هؤلاء الأولاد عن الطوق . وذلك لسبب بسيط وهو أن الطفل لا يكبر بسهولة ولا يترعرع بين يوم وليلة ، ولا بد للأب والأم من السهر الطويل عليه حتى ينمو ويشتد ساعده

فالوالد كان والحالة هذه مضطراً الى حماية الأم ، أو الى حماية الأمهات زوجاته ، لأنه كان يكثر فى الواقع من الزوجات ويتنبه آخر الأمر الى انه قد أعقب منهن عدداً كبيراً من الأبناء

وكانت نساء الرجل في العصور الاولى اشبه بقطيع مقدس . وكان مستقبل القبيلة منوطا بهن . وكان الزوج ولا شك يحبهن ، كما تحب الأشياء اللطيفة الثمينة التي يشتهيها الآخرون والتي جعلتها العادة ضرورة

ولقد زعم بعض الرحالة المستكشفين أن الغوريلا الافريقي يمتاز بكونه زوجا صالحا وأبا طيبا ، وأنه يبني وكره في الأغصان العالية ويحمل الى هذا الوكر عائلته ويظل هو تحت الشجرة ساهراً عليها متأهبا للدفاع عنها

وفي استطاعتنا أن نعتقد أن الرجل الأول كان على هذه الشاكلة ، ولكنه لم يكن شبيها بالغوريلا لانه كان لا يعرف البساطة المطلقة التي يتمتع بها ذلك الحيوان

كان الرجل الأول يفكر ولا ريب أو يجتهد في التفكير والتروي . وكان يتلون ويتقلب ويستنكر نظام الأشياء ويطلب أحسن مما في يده وهو لا يستطيع أن يعين في شكل واضح حقيقة ما يطلب

وهكذا تطور هذا الرجل مدفوعا بسلطان عقله ، وتاقت نفسه الى معرفة الاسباب التي أوجدته ومعرفة المصير الذي سوف ينتهي اليه . فتولد في قلبه الشعور الديني فشاد الهيا كل لآلهته واخترع الفنون وهو يحفر الصخر ويشذب الاخشاب . وكما ابتدع الفن ابتدع الحب العاطفي أيضا

ففي اليوم الذي عدل الرجل الأول عن اختطاف الانثى الشابة ، وآثر أن يستميلها بالحسنى ويقدم اليها عقداً من العظم أو القواقع كي تعطف عليه وتمنحه ذاتها « من تلقاء نفسها » ، في اليوم الذي تمنى الرجل الأول أن يفوز من الانثى بابتسامة أو دعابة أو شبه احساس يدل على انها عطفت عليه ومالت اليه بمطلق حريتها ، في ذلك اليوم انبثقت عاطفة الحب وولدت من صلب البهيمية الوضيعة الأولى

وهذا طبيعي . لأن الحب في الأصل يقوم على التفضيل والايثار ، على تفضيل شخص على آخر تفضيلا يجهل العقل بواعثه وأسبابه . ومن هنا كانت قوة الحب وتعلقه المفاجيء وسرعة تقلبه أيضا

ولكن تفضيلنا شخصا معينا يتطلب من هذا الشخص أن يفضلنا نحن أيضا على سوانا ليتم الحب . فهذا التفضيل المتبادل يستلزم حرية في الاختيار وحرية في القول والرضاء

وإذن فالرجل المتوحش الأول أراد على مر الزمن أن تختاره المرأة بملء حريتها . أراد أن ينعم بهذه اللذة الجديدة . أراد أن يعتقد أن المرأة اختارته لانه أجمل وأقوى

وشعرت الانثى أن هذا الانقلاب جاء فى مصلحتها ومصلحة جنسها فماذا فعلت ؟ استغلت موقف الرجل . أرادت أن تزيده تعلقا بها فتمنعت وتدللت وأعرضت وتركت عقد العظم الذى قدمه اليها بصفة هـدية ، يقع منها ، ثم فرت واختفت خلف الاشجار وقبعت هناك وظلت تنظر الى الرجـل وهو مقبل عليها وقد ثارت ثائرته واحتدمت كبرياؤه وعصف به الغضب . ولمـا دنا منها وقبض عليها قاومته واجترأت عليه وفعلت كما تفعل الهرة ، أى خدشته بأظفارها فى أنفه . ثم استسلمت له ولسان حالها يقول : « أنت أجمل وأقوى وأفضل من الآخرين ! »

وصدقها الرجل . أما هى نفسها فلم تعرف حتى الآن مبلغ صدق عاطفتها فى تفضيل رجل على رجل وانسان على انسان !

***

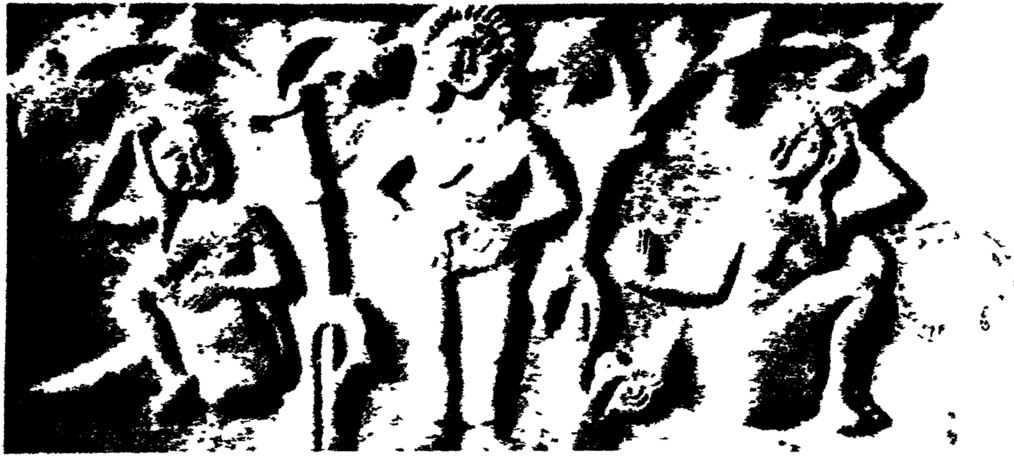
وهكذا ولد الحب أو جرثومة الحب الذى عرفته الانسانية فيما بعد وكان فيه فرحها ومنه شقاؤها

وكان لا بد من انقضاء قرون طوال قبل ان يتخذ الحب المظهر الذى ألفته الحضارة الغربية . والواقع ان كل زمن وكل جنس وكل شعب ، جلب الى عاطفة الحب طابعا جديداً وأضفى عليها لونا معينا ولغة خاصة

والغريب أن كل عاشق حاول أن يخلق الحب خلقاً جديداً ويبدعه ابداعا مستقلا يتفق مع أهوائه وميوله . ومع ذلك فقد ظل الحب هو هو لا يتغير

ظل غريزة جنسية تجملها أفانين الخيال وتلطفها وتخفف من حدتها وتحمل الانسان على تناسيها أو على نسيانها

ولقد عرف الروائى بلزاك الحب بأنه «شعر الحواس» وقال عنه العلامة لويس مينار إنه « طفل يريد أن يولد » ووصفه الفيلسوف شوبنهور بأنه « شرك نصبته للانسان غريزة النوع » . ولـكن أليس فى وسعنا أن نقول بكل بساطة ان الحب هو المخيلة الشعرية مضافة الى الغريزة ؟ الحق ان الغريزة الجنسية أو غريزة النوع تكفى لنصب الشرك الذى يقع فيه الرجل والمرأة والذى يدفع بهما الى انتاج النسل . ولـكن هناك حبا يظل بين الرجل والمرأة بدون انتاج نسل وبدون أن تسيطر عليه غريزة النوع . هناك حب يتغذى من نفسه ويعيش من المخيلة الشعرية والفنية أضعاف ما يعيش من غريزة النوع . بل ان



نقوش بارزة قديمة اكتشفت في عقلون وهي تمثل نساء يتبرجن ويقمن بزينتهن

الحب في مصر والشرق

منذ العصر الذى نقشت فيـه أول الرسوم على الأحجار ، حتى العصور التى عرفها التاريخ ، وسجل حضارتها القديمة ، تنبسط منطقة كبيرة مجهولة يبدو انها خالية من الاحداث . ولقد احتفظ التاريخ من العصر القديم بظواهر امتازت بها مصر منذ عهود الأسر القديمة . وأهمها تكريس النساء لخدمة إله الحب أو إلاهة الحب. وهذا التكريس الديني تقدم الزواج وحدد نظاما خاصا للنساء اللواتي كن ملكا مباحا لجميع رجال الطائفة أو القبيلة . وكان أبناء المرأة أبناء الجميع . وكانت صلة النسب ترجع الى المرأة لا الى الرجل.وكانت أرق وألطف عاطفة يتمثل بها عاشقان هى عاطفة الحب بين الأخ والأخت

ولقد كان العاشق فى مصر القديمة ينادى معشوقته يا أختى ، وهى إذ تخاطبه تقول يا أخى . وكل الشعر المصرى الغرامى القديم ينحصر تقريبا فى هذه الاخوة المضطرمة

وتطور المجتمع المصرى وظهر الزواج . وكانت المرأة المصرية إذ ذاك مميزة عن جميع اخواتها الشرقيات وأكثر منهن تمتعا بحريتها . كانت تتمتع حتى وهى متزوجة بحقها فى التصرف بثروتها . وتحمل اسما خاصا معناه « سيدة البيت » . وكانت لا تسكن مع زوجها بل تستقبله فى بيتها هى كضيف مفضل ممتاز . ولكنها كانت تقبل أن يكون لزوجها عدة زوجات غيرها تحيا كل منهن فى بيتها المستقل . وأما أبناء هؤلاء النساء فكان يعترف بهم جميعا كأبناء شرعيين . وكان المصريون يحاولون اقرار العدل بين نسائهم رغبة منهم فى ضمان السعادة بعد الموت فى الحياة الأخرى

ولم تكن العلاقات الغرامية عند المصريين القدماء علاقات هوى مشبوب عنيف يمازجه القتل وسفك الدماء . بل علاقات جنسية طبيعية يلطف من حدتها نوع من الحنان المداعب الرقيق ، كما تدل على ذلك أشعارهم التى كشف العلماء عنها

كانت أثواب الفتى والفتاة شفافة رقيقة وكانا لا يجهلان سر العلاقة الطبيعية . وانى لأتصورهما . أتصور الفتاة المصرية شبيهة بمغنية معبد آمون التى ترقد مومياؤها فى نعش من البلور فى المتحف البريطانى . أتصورها كالفتيات اللواتى رأيتهن فى صعيد مصر

اتصورها مثلهن وأحاول بعثها واضفى عليها غلالتها الشفافة القديمة التى يبرز منها عنقها اللين وتتراءى من خلالها أوضاع بدنها الغض

أحاول احياءها فأناولها القيثارة رسمت عليها مختلف الوجوه وشتى العصافير . . .

ها هى حية ! وها هى تغنى قصيدة من الشعر المصرى القديم . فاستمع اليها تقول :

« ياصديقى الجميل . أتمنى أن أعيش وإياك كامرأتك

« أتمنى أن تضع ذراعك على ذراعى وتمضى وفق هواك . وعندئذ أشكو لقلبى المحبوس فى صدرك كل آلامى

« لو أنك يا أخى الاكبر لا تزورنى الليلة فلا بد ان أصبح كسكان القبور

« أولست أنت الصحة والحياة ؟ أولست أنت حامل الفرح والصحة الى قلبى الذى يبحث عنك ؟...

« ان جماهير الاطيار تتلاقى على النهر ولكنى أنصرف عنها ولا أفكر إلا فيك يا غرامى ، لأن قلبى معقود بقلبك أنت ! »

هذا ما غنته الفتاة المصرية العاشقة فاسمع الآن أغنية الفتى المصرى العاشق :

« أريد أن أرقد فى حجرتى لانى مريض بسببك ولان الجيران قد وفدوا لزيارتى .

آه لو ترافقهم أختى،لاستطاعت إذن رد الاطباء عنى لانها وحدها تعرف سر مرضى! »

هكذا كان العشاق فى مصر القديمة يتبادلون الشكوى ويمزجون الاغانى بالورود والأطيار . كان البط والسنونو والحمام يرفرف ويطير من خلال أغانيهم التى لا تمتاز بعظمتها ولا بعمقها بل بملاحتها الساحرة ورقتها العميقة وعذوبتها الفاتنة

***

ولم يكن حظ الفارسيات والأشوريات والكلدانيات سعيداً كحظ المصريات اخواتهن . كان الاستبداد شائعا فى تلك الممالك . وكان جبابرتها يسحقون الشعوب كما تسحق فى الخابية حبات العنب . وكانت نساؤها جد شقيات تاعسات

ولقد تمتعت المرأة الكلدانية فى عهد بعيد بشيء من الاستقلال والحرية . ولكن هذه الحرية لم تدم

تبدل طابع الزواج فكان الرجل يشترى المرأة ويعتبرها متاعاً له

كان فى وسع الكلدانى ان يطلق بمجرد كلمة يقولها . وكانت الزوجة تلقى في الماء

وأما المرأة الزانية فكان يقطع رأسها أو تطرد ويلقى بها شبه عارية أمام [illegible]
يستبيحها من شاء دون رحمة

ولكن الزوجات الموسرات كن يتقين بفضل مالهن هذه الأخطار ويستخدمن كتابا مهرة يعرفون كيف توضع فى عقود الزواج بعض نصوص تفسر على الدوام فى مصلحة الزوجة

وكان ملوك تلك البلاد يقترنون بالنساء ثم يغدرون بهن ويسلمونهن الى الجلاد . كانوا من كبار الصيادين وكبار القتلة ، وأشكالهم المنقوشة على جدران قصورهم والبارزة منها عيونهم الوحشية الكبيرة وأثوابهم المجعدة ومظهرهم المروع وهم يسحقون أعداءهم تحت عجلات مركباتهم الحربية ، لا تبعث فى نسائنا عاطفة الأسف على انهن لم يعشن فى تلك العصور حيث كانت المرأة تطرد أو تذبح بعد ان يقضى الرجل منها لبانته

ومع ذلك فقد عرفت قصور نينوى وبابل ملكات عبقريات وضعن نعالهن الوشيات بالحرير على رؤوس ملوك كانت ترتعد أمامهم الفرائص

فالملكة اتوسا أخضعت الجبار قمبيز ، والملكة استريت سحرت لب الملك المزهو المريض كزرسيس ، واليهودية استير عرفت كيف تغزو قلب احشورش وتنتقم لشعبها

ولقد طالما حدث فى تاريخ العبرانيين ان تقدمت نساء على قسط كبير من الذكاء والجمال وجاهدن بذكائهن وجمالهن دفاعا عن مصالح أبناء جلدتهن

ومنهن أيضاً يهوديت التى قطعت رأس هولوفرن والتى يمجدها أبناء جنسها كما يمجدون استير

ويجب أن نلاحظ هنا أن البطلات العبرانيات لم يكن عذارى كجان دارك مثلا بل كن نساء قويات مكتملات الأنوثة لا يترددن فى استخدام روعة أنوثتهن لتأدية واجب عنصرى قومى

ولا يفوتنا أن المرأة اليهودية هى امرأة شرقية وانها كانت معتبرة أدنى من الرجل ، وأن اليهود كانوا يرون فيها مصدراً من مصادر القوة الفطرية وموطنا خطراً من مواطن الخطيئة . وكانت لا قيمة لها عندهم إلا بالعائلة التى تنتسب اليها وبالنسل الذى ينحدر منها وتسهر على تربيته وحمايته

ولقد كان الرجل اليهودى فيما مضى يقترن بعدة زوجات ليضمن استمرار سلالته .

وكان اذا مات ولم يعقب حتما تقدم شقيقه واقترن بامرأته لتستمر نفس الغاية أي استمرار السلالة وبقاءها . والواقع أن الزواج كان يرمي عنــد اليهود الى غرض واحد هو النسل . ولذلك قل عندهم الى حد بعيد عدد العزاب وعدد الفتيات العوانس

ومع ذلك فقد كان مركز امرأة اليهودية أرفع من مركز المرأة الاشورية والفارسية . لان الحجاب لم يكن شــديد الوطأة على النساء فى فلسطين وقلب الرجل اليهودى لم يكن قاسيا على زوجته ورفيقته

ومن الانصاف أن نقول إن الرجل اليهودى ظل يبرهن على فضائل عائلية عظيمة الى ما قبل العصر الذى تشرد فيــه اليهود ولجأوا الى سكنى الحارات والأزقة واضطرت نساؤهم بحكم هذه الحياة الجديدة الى الانطواء على أنفسهن فى البيوت

وهذه الفضائل ما تزال متمكنة من قلوب معظم رجال اليهود حتى اليوم . ولــكن حياتهم الدينية العميقة خلقت لهم صورة خاصة من المرأة ومثلا نسويا أعلى يتفق وتاريخهم وطابع عنصرهم فهم يحترمون ويعجبون بالمرأة القوية وبربة البيت النشطة المخلصة التى ترعى مصالح زوجها وتسعى لمضاعفة ماله وتنجب له أكبر عدد من الابناء

وليس شك في أن احترام اليهود لأمهاتهم واجب مقدس وأن العطف الزوجى عندهم رصين ومتين . وقد يتحول هذا العطف الى حب رقيق كحب يعقوب لراحيل

وأما العشق خارج دائرة الزواج فمكروه عندهم أشــد الكره والقانون يحرمه ويشتد فى معاقبة الزانية والعرف يقصى البغى عن هيئة المجتمع ويسومها مختلف صنوف الزراية والاحتقار

والحق أن اليهود يتشددون فى معاقبــة المرأة التى تنحرف عن الطريق السوى ولا يلتمسون لها أى عذر ولا يقدرون ضعفها الطبيعى واحتمال سقوطها تحت تأثير هــذا الضعف ولا يصفحون عنها . ولذلك ثارت ثائرتهم عندما صفح المسيح عن مريم المجدلية الزانية واستنكروا الأمر واعتبروه خروجا صارخا على التقاليد . ولـكن معظم المسيحيين يتبعون حتى اليوم نفس المبدأ ولا يتساهلون فى معاملة المرأة الساقطة كائنة ما كانت الاسباب التى دفعتها الى السقوط

الحب عند الاغريق

ولننتقل الآن الى الحديث عن الاغريق :

استولت الدهشة على أول فوج من السياح الاغريق الذين زاروا مصر القديمة عند ما شاهدوا المرأة المصرية . ولما عادوا الى بلادهم بالغوا كثيراً فى وصف ماشاهدوه على ضفاف النيل وقالوا ان المرأة المصرية سيدة مطلقة فى بيتها وأن الرجل متى تزوجها أقسم على طاعتها والخضوع لها

وقد ترتب على هذه الدعاية أن حسدت الاغريقيات نساء مصر وتمنين لو استطعن الحياة على غرارهن

وكانت الاغريقيات محجبات فى البيوت على مثال الاسيويات فى دور الحريم. وكان لرجل الاغريقى غيوراً كل الغيرة على حقوقه كمواطن ورب عائلة

ولم تكن لنساء الاغريق إذ ذاك أية حقوق عامة . وكان رجالهم ينظرون نظرة الاستنكار الى اختلاط الجنسين فى لاسيديمونيا واشتراك الفتيات والفتيان فى الرقص والالعاب الرياضية . وكان ليكورجوس يرى في هذا الاختلاط عاملا من عوامل تخفيف حدة الشهوات ورقى العادات والاخلاق ، وحفز الشبان الى التمسك بالعفة عن طريق الالعاب الرياضية وبواسطة الاختلاط الذى يجرد المرأة من سرها ويجعلها فى نظر الشاب انسانا عاديا . ولكن رجال الاغريق فى مختلف المدن الأخرى كانوا يرون غير هذا الرأى ولا يؤمنون بتلك العفة التى لا حياء لها والتي لا تتحقق إلا من طريق اختلاط الجنسين

وكانوا يربون المرأة الأثينية لتكون زوجا صالحة تسهر على أعمال البيت وتحتجب فيه . ولم يكن يسمح إلا للرجال أقاربها بالدنو منها والتحدث اليها

فهل كانت تفكر إذ ذاك فى الحب ؟ وفيم كانت تفكر ؟

كانت تسترسل فى تأملات العزلة وكانت الاغانى والأساطير وقصص الآلهة تقوم عندها مقام الروايات التى تطالعها أو تشهدها النساء اليوم

ولا شك أن المرأة الأثينية كانت تسمع أثناء زياراتها لأقاربها أو صديقاتها عدداً من

ذلك فقد كانت لفرط عزلتها واحتجابها وتطلعها الى الحياة ، تسعى لمعرفة أسماء أولئك الشبان وأنسابهم ومواهبهم والنجاح الذى أحرزوه فى ميادين الالعاب الرياضية . فكان ينتهى بها الأمر الى الاقتران بواحد منهم

وكانت الأثينية تقبل على حياة الأسرة بنفس متأهبة للعطف والحنان لانه لم يكن فى مقدورها أن تتصور الحب بدون زواج أو تختار بنفسها الزوج الذى تريد

كانت مهيأة للزواج بدون حب وكان والدها هو الذى يختار الزوج ويجبرها على قبوله فى بعض الاحيان حرصاً على مصلحتها كما تفعل طائفة كبيرة من الآباء حتى اليوم

ومن الضرورى توجيه نظر القارىء الى انه لم يكن مسموحا بالتزوج بأكثر من امرأة واحدة ، ولم يكن فى وسع الأثينى أن يقترن بغير الأثينية

وكان لايرث الوالد غير أبنائه الشرعيين وكان لايعترف بأبناء المحظيات والعشيقات والسرارى ، بل يجتهد في حماية الزواج الشرعى خدمة للعائلة نفسها

فالزوج الشرعى كان رئيس الأسرة وسيدها . وكانت الزوجة تتولى شؤون البيت وتبذل قصاراها فى الاحتفاظ بقلب الرجل واخضاعه لسلطانها تارة بالحيلة وتارة بالصياح والبكاء أو بالاعتماد المطلق على محاسنها . وكان معظم أولئك الأزواج ذوى القوة والبأس فى ميادين القتال يستسلمون لزوجاتهم فى البيت طلبا للهدوء والراحة ثم يطلقون العنان لنزواتهم فى الخارج متى سنحت الفرص

كانوا يخدعون زوجاتهم لأن الزواج لم يكن قائما على الحب ولان التعارف بين الخطيبين كان محظوراً قبل الزواج ولان فكرة الزواج نفسها كانت بعيدة عن الحب كل البعد

ومع ذلك فقد كان يحدث أن يتولد الحب اتفاقا فى دائرة الزواج فيتم تقارب القلبين ويعيش الزوجان فى سعادة كما عاش ادميت والسيست ، وهيكتور واندروماك ، وفيليمون وبوسيس

ولقد قص علينا كرينوفون حكاية زوجين تمت لهما سعادة الحب ، حكاية المواطن الشريف ايشوماك الذى تحدث الى الفيلسوف سقراط عن زواجه وكيف انه اقترن بفتاة فى الخامسة عشرة من عمرها فما زال بها يعلمها ويهذبها ويرشدها الى واجباتها البيتية ويهديها الى خير طريقة تدير بها أمواله وتعامل بموجبها خدمه وعبيده ، حتى أصبحت

مثال المرأة الطيبة العاقلة الكاملة ، وادركت ان زوجها ليس بسيدها بل صديقها وانها امرأة لها عقل وكرامة واحساس

والبديع فى هذه القصة أن روح المساواة بين الرجل والمرأة وان اختلفت وظائفها تتجلى فيها بأكمل معانيها ، فالزوجة كانت معجبة بزوجها الذى قدرها ، حريصة على طاعته ومرضاته ما دام ينشد سعادتها

والزوج كان يعترف بشخصيتها ويخلص لها ويتسامح معها فى مبدأ الأمر متى أرادت تجميل وجهها بالمساحيق ثم يراجعها فى لطف ويجتهد فى اقناعها بأن جمالها الطبيعى أوقع فى نفسه ، وان اغتسالها بالماء النقى يزيد فى بهائها ويجعلها كالزهرة جلاها الندى

ولقد فهمته الزوجة الشابة آخر الامر وأذعنت له وأحست الحب والسعادة بقربه فأصبحا يمثلان الحب الزوجى كما ينشده الناس فى ربيع الحياة

ولكن كل الأزواج فى ذلك العهد لم يشبهوا ايشوماك فى سعة عقله وحسن حظه

وكان بعضهم يضجر من حياة البيت أو من رفقة زوجة لم يعرفها قبل الزواج أو من قرب امرأة دميمة اقترن بها بدافع المصلحة أو من معاشرة أنثى غاض شبابها وعجلت الحياة الزوجية بشيخوختها ، فكان يغادر البيت ويقضى معظم الاوقات فى الخارج يتحدث الى المواطنين فى الشؤون السياسية أو يقصد ـ متى كان موسراً ـ الى دور البغايا

وكان البغاء شراً كبيراً ونظاما بغيضا ونتيجة شائنة محتومة لأسلوب الزواج عند الاغريق

وكان الزواج المجرد من الحب والمعقود بين شخصين يجهل أحدهما الآخر ، مؤديا فى أغلب الاحيان الى انطلاق الزوج فى فسحات العشق المحرم بين النساء المتبذلات صائدات القلوب وبائعات الهوى

وكانت البغايا ذكيات العقل ماهرات خبيثات يعرفن كيف يخاطبن الرجل المتعلم والشاب الغنى والفيلسوف الكبير والفتى الوارث المغرور الذى ينفق عليهن عن سعة ثم يبوء منهن بالصد والاعراض

ولقد حدث فى عهد الاغريق أن وجد بين أولئك البغايا نفر من النسوة الممتازات بالعقل النابه والفكر المتوقد والاحساس القوى ، والرقة العاطفية الثمينة ، كاسبازيا التى عشقها بيريكليس وتدله بها وطلق امرأته وتزوج منها ثم أحبها غاية الحب فكان لا يخرج من بيته إلا آسفا على فراقها ولا يدخله بدون أن يقبلها . وكان سقراط يزورها ويعجب

الاعجاب كله بدماثة أخلاقها وحسن ذوقها ولمعان ذهنها

ولكن اسباريا كانت نادرة بين أترابها ، وكونها قد تفوقت بعقلها وذكائها لايدل على ان نظام الحياة الاغريقية كان صالحا أو على أن الرجل الاغريقى كان يجد فى مجتمع البغايا شيئا آخر غير الصحة والاسفاف والتعرض لشر المخاطر النفسية والبدنية

الحب عند الرومان

كانت روما فى عهد ملوكها الأولين وفى عهد الجمهورية لا تحفل بالحب على الاطلاق

كانت الزوجة تغزل الصوف وتحرس الدار وتجل زوجها اجلالها لوالدها

ولقد ظل الطلاق قائما من الوجهة النظرية نحو ٢٣٠ سنة ولـكن أحداً من الرجال لم يفكر فى الانتفاع به والالتجاء اليه

كانت الزوجة الرومانية تابعة لزوجها ولـكنها كانت من الوجهة العملية أكثر حرية من المرأة الاغريقية وأوثق اتصالا بحياة زوجها

كانت مواطنة مثله ، تقاسمه نفس البيت ، وتستقبل أصدقاءه ، وتهتم بحياته العامة وما يدور فيها ، وتشعر شعوراً بالغا بمـا عليها من واجبات ، وتعيش فى شبه فضيلة صارمة حازمة

ومن المعروف ان الرومانيين كانوا يخلصون للدولة كل الاخلاص ويضعون الدولة فوق كل شيء . وكان الجنود منهم والمتشرعون وأرباب الأسر يحيون حياة متقشفة قاسية ويقتصدون حتى البخل ولا يعبدون غير القوة

لم يكن لهم شعراء ولا فنانون . كانوا رجال تشريع وتنظيم وقتال فحسب

ولقد ثأرت منهم اليونان فيما بعد عند ما انتصروا عليها فانتشرت بينهم الاخلاق والعادات الاغريقية فأسرفوا فيها فأفسدتهم وحلت بانحطاطهم . وأما الشعراء فقد ظهروا فى روما بعد ان تغلبت روما على اليونان. وكان أولئك الشعراء أنفسهم تلامذة اليونان. وأما أرباب الفنون فـكان معظمهم من صميم اليونانيين

والحق ان قيصر لم يكن مثلا أعلى فى الفضائل البيتية وكذلك اوكتافيوس . ولقد ستطاعت كليوباتره المصرية الاغريقية ذات الأنف المقلص الصـغير والسحر النسوى النادر والذكاء العقلى المضطرم أن تفوز بحب قيصر ردحا من الزمن ، وأن تخضـع لفتنتها مركوس انطونيوس مدة طويلة

ويعرف القارىء حق المعرفة ما وقع لذلك القائد الجميل وكيف كان مصيره بعد ان



فينوس
الهة الجمال



القبلة

مثال مرمري سكير اوجست رودان

وكان علماء الكنيسة وجماعة الزهاد المسيحيين مايزالون تحت تاثير العقل اليهودى فحملوا على المرأة وقالوا انها مبعث الشر والفساد وحذروا الشباب منها ومن قوة الاغراء المتمثلة فيها والمؤدية الى الخطيئة

وكان الحب فى نظرهم خطيئة ما دام لا يتكلل بالزواج ولا يقتصر على امرأة واحدة

وافضى بهم خوفهم من جاذبية المرأة وحبهم التقشف والزهد الى الحملة على فكرة الجمال نفسها وعلى مباهج الترف وأسباب النعيم التى تمتاز بها الحياة المتحضرة ، وكانوا يفرون من الشهوة ويكبحون نزوات ابدانهم ويهرعون الى الصحارى تخلصاً من شبح المرأة . ولكن هذا الشبح كان يلازمهم ويعكر عليهم صفو تأملاتهم فلا يزيدهم إلا ايمانا بعقيدتهم ورغبة فى التحرر من أهوائهم وميولهم

مجدوا البكارة والطهر أعظم تمجيد ولم يسلموا بضرورة الزواج إلا كعلاج لضعف الجسد . وكانت الكنيسة تقدر الزواج وتعظمه وتجعل منه سراً دينياً وتريده اتحاداً طاهراً نقياً تحف به الأمانة الزوجية المتبادلة ويتوجه النسل . ولكن الكنيسة كانت تحرم الطلاق وتستنكر زواج الأرمل والأرملة متى كان لهما أبناء وتتقدم الى الشباب عامة بفكرة علوية عن الحياة الزوجية وتنادى بأن اللذة الجثمانية غير مسموح بها فى هذه الحياة إلا لأنها الطريق الوحيد المؤدى الى الأمومة المباركة

فالعفة والحالة هذه كانت المثل الأعلى . ولذلك كرم المسيحيون العذراء وأقاموا تمثالها على هياكلهم

وظهرت إذ ذاك أعراض جديدة فى الحياة العامة بدلت الأخلاق والعادات القديمة تحت تأثير المسيحية أبلغ وأتم تبديل

ظهر أزواج احتفظوا بطهارة ابدانهم في صميم الحياة الزوجية وأحبوا بعضهم حباً عاطفيا خالصا كملائكة اطهار

ظهر جمع من البغايا أردن الاقتداء بمريم المجدلية فندمن على خطاياهن وجاهدن محو ذنوب شبابهن بالتطلع الى الحب الالهى الاسمى

ظهرت جماعات كثيرة لعنت الصلة الجنسية بين الرجل والمرأة وآثرت القبح على الجمال والحزن على الفرح ، والألم بالغاً مابلغ من الشدة على ملذات البدن والحواس

وهكذا أحست المرأة انها مخلوق ممتاز شديد الخطورة واسع السلطان يمثل الملك متى كان طاهراً ويمثل الشيطان متى كان فاسداً منحطا

وراق المراة ان تــلون تارة زنبقة من زنابق الفردوس وأخرى زهرة من أزهار جهنم فمالت الى المسيحية باحساسها وشعرت أن هذا الدين الجديد يقدس العاطفة التى هى منبعها ويحمى فى دائرة الزواج الأبدى مستقبلها ويبدل الحب ويتسامى به ويجرده من غلظته، فآمنت به وتغيرت شخصيتها على مر الزمن تحت تأثيره واستفاض هذا التأثير وغمر العالم الغربى وأعطاه فــكرة جديدة عن الزواج وعن الحب

الحب عند البرابرة

كان للمرأة بعض السلطان عند الشعوب البربرية التى كانت تنمو فى مجاهل جرمانيا وغاباتها وفى البلدان الشمالية حيث الشتاء بطىء والليالى طويلة مضجرة

ومما يجدر بنا ذكره ان جنود الرومان عند ما فتحوا بلاد الغال بقيادة قيصر دهشوا كل الدهش اذ أبصروا الغاليين يسرفون فى احترام نسائهم ويعتقدون ان للمرأة المنحدرة من عنصرهم قوة خارقة تكاد تكون سحرية

هـذه المرأة كانت فى الواقع مساوية للرجل فى الحياة العامة تدرس العلوم الدينية المقدسة مثله وتقرأ الطوالع وتتنبأ بالمستقبل . ولـكنها لم تستطع الفوز بهذه المساواة فى الحياة الزوجية

كانت نصف الاملاك المشتركة بينها وبين زوجها ملكا لها . وكانت ترثها جميعا فى حالة وفاة زوجها . وكان لزوجها عليها حق الحياة والموت . ومع ذلك ففى وسعنا ان نقول استناداً الى ما كشف عنه التاريخ من أخلاق رجال بلاد الغال ، ان أولئك المحاربين ذوى الاعصاب السريعـة الانفعال وذوى الخلق العنيف والزهو المتأصل والاحساس المتقلب والولع بكل جديد والغرام بالمرح والثرثرة واللفظ المنمق العذب ، كانوا بحكم هـذه الطباع نفسها أقرب الى نسائهم مما يظن وأقل استبداداً بهن وأسلس لهن قياداً

وليس شك فى ان المرأة الغاليـة التى أوتيت مواهب الفصاحة والرقة والمهارة والشجاعة والامانة ، كانت تعرف كيف تستميل زوجها وتقنعه بسلطانه ثم تبسط هى سيادتها على الاكواخ الشبيهة بالخلايا وعلى البيوت الكبيرة فى المدن وعلى القصور الصغيرة المزينة بالنقوش والتماثيل

ومن أبلغ الأدلة على تفوقها حكاية « ايبونين » التى تمثلت فى حبها لزوجها عبقرية المرأة متى أحبت . كانت تعبد قرينها « جوليوس سابينوس » فحدث ان نفاه الامبراطور فسبازيان فضطر الرجل الى الاختفاء والحياة فى شبه سرداب أو مغارة بعد ان أشاع أهله

[illegible] . وكانت ايبونين تذهب لملاقاته فى المغارة كل ليلة ولا تعود الى بيتها الا عند الفجر حيث تبدل شخصيتها وتمثل امام الجميع دور الارملة اليائسة

ولقد استطاعت هذه الزوجة المخلصة ان تحيا هذه الحياة المزدوجة المضطربة المحفوفة بالمخاطر اليائسة من محاولة انقاذ الحبيب تسع سنوات كاملة

ولقد استطاعت فوق ذلك بفضل مهارتها وشجاعتها وحنانها ان تجعل من المغارة مأوى رائعا لذلك الحب العظيم الذى صقلتـه الآلام وسمت به التجارب وأصبح غاية الزوجين الوحيدة فى هذه الحياة

وتولد من هذا الحب توأمان سهرت الزوجة والزوج على العناية بهما وتربيتهما فى الظلام وفى الخفاء . ولـكن القدر الغادر أبى الا ان يقف الرومان على السر ويكشفوا عن المأوى فحملوا الام والأب والولدين الى روما وشرع الامبراطور نفسه فى محاكمة الزوج الذى كان مواطنا رومانيا وقيل انه منحدر من سلالة يوليوس قيصر

عندئذ ألقت ايبونين بولديها عند قدمى الامبراطور وصاحت :

« لقد حملت بهذين الطفلين في المقابر فخرجا الى النور ليزيدا فى عددنا ونحن نطلب رحمتك ونستغيث بك »

غير ان الامبراطور لم يرحم فقضى على الزوج وأراد ان يعفو عن المرأة « الغالية » ولـكنها رفضت الحياة وطلبت الموت مع قرينها فتم لها ما أرادت

ومما لا يقبل الريب ان حب ايبونين لزوجها تملك منها واستولى عليها واتخذ طابع هوى عنيف فـكانت هذه هى المرة الأولى التى أهملت فيها واجبها ونسيت انها لم تـكن زوجة فحسب بل والدة أيضاً

والحق ان ايبونين وسابينوس كانا قد تطورا وصقلتهما الحضارة أثناء تغلغلها شيئا فشيئا في طبقات الشعب الغالى الرفيعة التى تلقت الثقافة العالية الرومانية

أما قبائل الجرمان فى الجانب الآخر من نهر الرين فـكانت ما تزال بربرية بكل مافى هذه الـكلمة من معنى

كان الجرمان إذ ذاك لا يعرفون كيف تبنى البيوت بالاحجار ولا كيف يجملون أكواخهم ويزينون أبدانهم . ولم تـكن لهم من فضـائل غـير فضائل الحياة الوحشية

كان الرجل منهم لا يحس الرغبة الجنسية الا فى سن متأخرة ويتزوج وهو بكر من

فتاة بكر . فيقدم هـدية لعروسه جوادا مسرجا ودرعا وسيفا وفآسا من فؤوس الحرب

وكان أولئك الجرمان الجبابرة ذوو الشعر الأشقر المسترسل يقاتلون طمعا فى الأسلاب ويجتازون النهر ويقومون بغزوات دورية لاتنقطع ، تتبعهم عائلاتهم فى مركبات مكتظة ثقيلة . أما الجيوش الرومانية والغالية الرومانية الساهرة على حدود الامبراطورية فكانت تتلقى الوقت بعد الآخر هجمات تلك القبائل وتجتهد فى صدها . ولما كانت تطارد رجالها بعد المعركة وتدفع بهم الى معسكرهم وتردهم اليه ، كانت تدهش إذ ترى نفسها أمام عدو جديد ، أمام نساء الجرمان وهن يحاربن كالرجال ويقتلن أولادهن ثم أنفسهن متى شعرن بالهزيمة وضيقت فى وجوههن سبل النجاة !

ولا شك أن ضربا من العظمة الوحشية كان ينبعث من أولئك المحاربات . ولا شك أن الشعوب العنيفة القاسية المستخفة بالعواطف كالشعب الجرمانى ، هى شعوب قوية وغالباً ما تكون متوحشة لأن فضائلها الحربية هى نتيجة من نتائج نقص النعومة والنقاوة والتهذيب الطويل فى عقل واحساس ابنائها

وعليه فالحب عند البرابرة من شعوب الغال كان فطريا حتى تلقحت العقول بالثقافة الرومانية فخالطت العواطف هذا الحب . واما الحب عند البرابرة من الجرمان فقد ظل وقتا طويلا مجرد علاقة جنسية ثانوية تجد فى الزواج غرضها الأول والأخير ولا يسمح لها بأن تطغى فى الفرد على فضائل القوة فتضعفه وتلطف من حدة مطامعه وتحول بينه وبين القدرة على مواصلة الحرب والقتال

الامبراطورة جوزفين





نابليون



تتويج العاشق

للرسام فراجونار

الحب وروح الفروسية

وأخذت أوربا تتكون على مهل وطبعتها المسيحية بطابعها . وشرعت أمم الغرب المنقسمة المجتاحة تخرج من الظلمات وأصبحت القرون الوسطى فى نظر العقلاء عصور جهل وتخبط وفوضى

وقبيل عصر النهضة الاوربية لاح فجر جديد وانتعشت الفنون والآداب والفلسفة وتكون للمرأة وللحب مثل طريف أعلى لم يكن معروفا فى العصور السابقة

نشأ الحب المقرون بالفروسية والحب المقرون بالأدب والظرف والرقة واحترام الانثى الضعيفة والاشفاق عليها

وأخلص الفارس المسيحى لهذا الحب واستمد من تمجيد العذراء مريم لونا شعريا جديداً طبع به احساسه الغرامى وموقفه من المرأة

وكان الفارس يمثل القوة العادلة والبأس المنصرف لخدمة الدين والانسانية . وكانت المرأة تمثل الضعف الذى يجب حمايته والطهر الذى يجب التطلع اليه فانحنى أمامها الفارس وسماها «سيدته» ولم يجد فى ذلك أى عار لأن الحب كان فى نظره مقيداً بروح الرجولة وفكرة الشرف

وأصبح الحب فى البلاد الجنوبية حوزاً من حوافز البطولة وباعثا من بواعث الالهام الشعرى وقوة تدفع الى جلائل الاعمال وتولد فى الاذهان الافكار السامية الجميلة

وحمت به العواطف وغمرته وتسلطت عليه وأزهرت فى قصائد غرامية رقيقة شاعت فى اللغة الفرنسية القديمة وتناقلتها النساء فى الأكواخ والقصور

وكانت السيدات المثقفات يعتقدن أن فضائل الحب يجب أن تكون الشجاعة والأمانة والمنطق الفصيح ، وأن الرجل الأبله الغبى الألكن لايجدر بامرأة أن تحبه ولا يمكن أن يكون العاشق المنشود ، وأن الحب الصحيح يناقض الرغبة الحسية المجردة ويستنكر الدعارة وينشد الثبات ويتعلق بالروح لا بالجسد وحده ويهب كل شيء حتى ولو لم يظفر بأى شيء !

هذا الحب تجلى فى شخص لانسلو عاشق الملكة جينيفر وفى شخص السيد دى لوسى الذى مات فى الاراضى المقدســة بعد أن طلب أن ينتزع قلبه من صدره ويقدم تذكاراً لمحبوبته

وكان بطل هذا النوع من الحب فارساً يدعى غليوم دى نيفير . وكان كمعظم عشاق ذلك العصر شابا أشقر اللون جميلا بشعر مجعد وعينين كبيرتين ضاحكتين وأنف مستقيم وقامة مديدة وبدن قوى

كان هو وأشباهه يجيدون فنون القتال ويحذقون فنون الكلام ويعرفون كيف يخاطبون المرأة وكيف يختارونها وكيف يموتون غما وألما اذا أعرضت عنهم ولم تسمح لهم بدخول مخدعها

أما عاشقات ذلك العصر فكن جديرات بعشاقهن لا من حيث الجمال فقط بل من حيث البطولة أيضا

كن رائعات الجمال شقراوات الوجوه يجاهدن جهاد المستميت قبل البذل والاستسلام وتظل الواحدة منهن تقاوم وتمتحن ثبات الرجل حتى اذا ماوثقت به وأيقنت أن فضائل الحب المنشود كامنة فيه أذعنت له وخضعت لمشيئته ولم تعد تخشى فى سبيله خطر المغامرة وخطر الموت

وكان العشاق يتلاقون فى حجرات سرية تجملها أبهى الطنافس وأبدع الوسائد المزركشة أو فى الحدائق الغناء بين الزهور الحمراء والبيضاء فى أيام الربيع الفاتنة وعلى مرأى من البلابل الوحشية الصداحة كما سجلت ذلك مختلف قصص الغرام والفروسية التى وضعت فى ذلك العهد

وحدث إذ ذاك أن تضخمت فكرة الحب المثالى عند الشباب وأصبحوا لايقرون عظمة هذه العظمة ولا يؤمنون بها إلا اذا كانت متأهبة على الدوام للاقتران بالموت . وهكذا مجدوا شخص العاشق تريستان الذى أولع باميرة ارلندا ايزولت واستهان فى سبيلها بكل شىء وأجابته هى الى حبه واسترخصت الحياة مثله وساقهما الحب الأمثل الى الموت معا فانبثقت بعد أيام زهرة رائعة من قبر تريستان وامتدت فروعها وانحنت على ضريح ايزولت ثم انغرست فيه

وشاع تقديس هــذه الزهرة التى تربط العشاق بعــد الموت وتصل بين أرواحهم وتوحد بين أنفسهم فى العالم الآخر كما ألفت بينها فى هذه الدنيا

ولقد ورد ذكر هذه الزهرة فى قصيدة ساذجة جميلة وضعتها مارى دى فرانس وجاءت فيها هذه الأبيات :

يا صـــديقتى الحبيبة الجميــلة هذا حظنا فى الحياة وبعد الحياة
لاعيش لك بدونى ولاعيش لى بدونك ولا بد أن تزهر الوردة على قبرينا !

ويجب أن نلاحظ أن فكرة الحب القوى، المحتوم الذى يستمد سلطانه من سلطان القدر ، كانت فكرة اغريقية . وكان الاغريق يعبرون هذا الحب كانتقام من الالهة فينوس المتبرمة الغاضبة . فهذه الفكرة عادت الى الظهور فى القرن الثانى عشر وفى نظرة أهله الى الحب وفى أسطورة غرام تريستان وايزولت، ومع ذلك فنظرة أهل القرن الثانى عشر الى هذا الضرب من الحب تختلف اختلافا كبيراً عن نظرة الاغريق . لان هؤلاء كانوا يلعنون العذابات التى تقترن بالحب ويسخطون عليها كما فعل ديدون وفيدر، ويتوقون الى الفرح الكامل المليء . أما أولئك فكانوا يحيون آلامهم ويرحبون بها ويجدون فيها لذة كبرى . وهذا هو الاثر الملحوظ الذى أحدثته المسيحية فى تطور عاطفة الحب

ومما يدلنا أيضا على شيوع هذا اللون الفاجع من الغرام حكاية فرنشيسكا دى ريمينى وعشيقها باولو مالاتيستا

أحبته بكل جوارحها وأيقنت ان الموت نفسه لن يفصلها عنه . وأحبها بكل قوى شبابه وآمن بانهما وحدة لن تتجزأ . وقد تصورهما دانتى فى رحلته الى العالم الآخر . تصورهما معاً فى وسط زوبعة تعصف بهما كطائرين مخبولين وهما فى نشوة اتحادهما يرفرفان أرشق من الطيور وأخف من الهواء

تريث دانتى حتى هدأت الزوبعة ثم سألهما عن سر هـذا الاتصال الأبدى ، فأجابت المرأة نخوراً بعودة غرامها الى الاضطرام وقصت حكاية الحب الذى يخلب القلب النبيل ولا يسمح للحبيب بألا يحب حبيبه مهما وقع للعاشقين ومهما أراد الموت ومهما فعل الزمن . فقال الشاعر دانتى :

— ولكن خبرينى كيف كشف لكما الحب عن رغباتكما المضطربة أيام كنتما تصعدان التأوهات والزفرات ؟

فأجابت فرنشيسكا :

— ليس فى العالم ألم أفظع من ألم تذكر السعادة فى وقت الشقاء لان أجسادنا وأرواحنا كانت متصلة فى الدنيا . أما الآن فأرواحنا فقط هى التى تعيش . لقد بدأ حبنا

إذ كنا نطالع سويا قصة لانسلو وكيف تملكه الهوى . كنا بمفردنا والعشق ابعد ما يكون عنا . فلما وصلنا الى الفقرة التى انحنى فيها لانسلو على حبيبته وقبل الابتسامة الحائرة على شفتيها ، ارتجف باولو ودنا منى وقبل فمه فمى فأحسست لفورى انه لن ينفصل عني بعد اليوم أبداً . وألقينا الكتاب جانبا ولم نعد فى حاجة الى المطالعة فيه . .

هذا الحب الجنونى المطلق الذى لا يعرف الانفصال

هذا الحب القدر المحتوم الذى يهيء رجلا لامرأة وامرأة لرجل

هذا الحب الذى لا يعرف التوبة ولا الندم هو الحب الذى سوف ينمو شيئا فشيئا ويزدهر ويظلل فيما بعد العالم الاوربى كله ويصبح مادة الآداب والفنون

ومن المهم ان نلفت نظر القارىء الى ان الحب المقرون بالفروسية والعفاف كان بوجه خاص مثلا أعلى فى أسبانيا الكاثوليكية التى تأثرت بالعرب ونزعتهم المشهورة فى الحرص على الاعراض

كان الاسبان يتساهلون فى ان يكون للسيدات الاسبانيات رهط من الفرسان العشاق المعجبين بهن يتطلعون اليهن ويحملون شعارهن ويقومون بجلائل الاعمال مرضاة لهن ويذيعون فى البلاد محاسنهن وفضائلهن

ولكن لم يكن يسمح لأحد من أولئك العشاق بالدنو من معشوقته أو تقبيل يدها ولمس أطراف ثوبها

وانما كان يكتفى العاشق بأن يحمل ربابته ويغنى تحت نافذتها . وكان حبه على مر الايام يتسامى ويتجه نحو الخيال ونحو الروحانية المحضة خشية ان يصطدم ـ ان هو أراد الوصول الى شخص محبوبته ـ بزوجها الغيور أو شقيقها الجبار الذى يحرص على أعراض الأسرة كل الحرص

والواقع ان الغيرة على الأعراض كانت شديدة إذ ذاك فى أسبانيا وكانت القصور محكمة الاغلاق والاسوار عالية والجدران سميكة وكبرياء الآباء لا يقف دونها شيء

فعاطفة الغيرة كانت مقترنة عند الاسبان بفكرة الشرف وكان الرجل منهم لا يتردد فى قتل امرأته لمجرد شبهة حامت حولها . وهذا العارض النفساني صوره أصدق وأتم تصوير الكاتب الأسباني الاشهر كالديرون

ولكن اسراف الأسبان فى الغيرة زاد فى حبهم للمرأة وفى رغبتهم فيها فنشأت من أدبهم ومن أساطيرهم شخصيتان نظرت كل منهما الى المرأة نظرة خاصة

الشخصية الاولى هى دون كيشوت الذى يقبل المرأة على علاتها والذى لا يخيبه حبها لأنه لا يراها على حقيقتها ولا يرى العالم على حقيقته

والشخصية الثانية هى شخصية دون جوان الذى يريد ان يحب فلا يستطيع والذى يشعر بعجزه عن الاحساس بالحب فيمتلىء قلبه حقداً وبغضا على النساء فيطاردهن ويوقعهن فى حبائله ، ثم يستفيق واذا به كما كان متحجر العاطفـــة خاوى القلب والروح

هذه الشخصية تدلنا على مبلغ حاجة الاسبان اذ ذاك الى الحب العاطفى وعلى شعورهم بأن اللذات الجثمانية وحدها لا تـكفى وعلى ان الرجل مهما انحط خلقه واحساسه ومهما عبث بالنساء فهو لن يجد الراحة ولن يجد السعادة الا فى حب امرأة واحدة حبا كاملا روحانيا صادقا

ومع ذلك فالاسراف فى الغيرة هو الذى حمل دون جوان على الاسراف فى العبث بالفضائل والاسراف فى اغراء النساء . ولولا تلك الغيرة الطائشة ما ظهرت هذه الشخصية الخيلة التى تمثل جوهر النفس الاسبانية أحسن تمثيل

ولقـد كانت عاطفة الغيرة منتشرة اذ ذاك فى ايطاليا أوسع انتشار . وهناك مئات القصص والأساطير الحافلة بوقائع الحب المتخبط فى الدماء

هناك قصة فرنشيسكا دى ريمينى التى ماتت على جثة عشيقها . وقصة ماريا دافالوس التى قتلها زوجها فى نفس الفراش الذى استقبلت فيه عشيقها ثم ألقى بالجثتين فى أحـد شوارع نابولى . وهناك قصص مروعة أخرى وكلها تدل على جنون العشاق واستهتارهم وعلى ان الايطاليين كانوا كالاسبان يحاولون رد الحب الى العاطفة المجردة والقضاء عليه كلما خالف العرف الاجتماعى القائم وكلما أراد الاكتفاء بنفسه والتحليق فوق المجتمع وفوق القانون

الحب من عصر النهضة

حتى القرن الثامن عشر

بدأت النهضة فى ايطاليا قبل أن تبدأ فى المناطق الأوربية الأخرى بوقت طويل

وكانت قد شاعت فى ربيع النهضة الايطالية روح شبه وثنية تغلغلت فى الحب وجعلته لا يحفل كثيراً بقوانين الشرف والأخلاق

فسيدات ذلك العصر النبيلات اللواتى عشن فى قصور الأمراء وتهذبن وتثقفن وتعلمن اليونانية واللاتينية وطالعن قصص بوكاشيو واشتهرن بالخفة والجسارة ولا سيما فى مدينة فلورنسا ، كن لا يخشين الحب ولا يتهيبن الاقدام عليه ولا يتورعن عن التمتع الصريح بملذاته ولا يخجلن من التحدث فى أى موضوع يتصل به

وكانت ايطاليا العنيفة فى ميولها وشهواتها تحاول ان توفق بين انحطاط الاخلاق وازدهار الفنون

ولقد اختفت منها إذ ذاك الارواح الطاهرة الكبيرة والنفوس النقية العظيمة الشبيهة بنفس الشاعر دانتى أو القديس فرانسوا الاسيزى

ومع ذلك فحركة الفنون كانت رائعة فيها . وكان العبقرى ميكل انجلو يجاهد فى هيكل سيكستين جهاد الابطال وهو معلق على قطعة من خشب وقد ربط فى جبهته مصباحا وصوب نوره الى قبة الهيكل وجعل يبرز من تلك القبة أبدع صور الانبياء والقديسين

كان ذلك العبقرى شيخاً دميم الوجه مستوحداً فى عمله مستوحداً فى حياته يعيش على هامش عصره ويخرج التماثيل الخالدة كتمثال الليل ، والسحر ، وعذراء الشفقة وغيرها

والغريب أن نظرة المجتمع الايطالى الى المرأة فى ذلك الوقت كانت نظرة حسية جثمانية فحسب . أما نظرة ميكل انجلو فكانت شعرية تأملية روحانية أودعها مختلف شخصيات النساء اللواتى أبدعهن تصوره وخلدهن فى تماثيله على مر الزمن

وكان ميكل انجلو يشعر بوحدته فى عصر أصابه جنون الحواس . فكان إذ يرهقه النقش والنحت يهرع الى بيته الذى لم يدخله الحب السعيد أبداً ويأخذ فى نظم القصائد فى جوف الصمت وهدأة الليل

كان ينظم قصائد غرام ترن رنين النحاس

وكان يحب فيتوريا كولونا كما أحب دانتى بياتريس التى عرفها فى شخص فتاة من فتيات فلورنسا وما زال يجملها بخياله حتى جعل منها عروس شعر دينى خالدة

ولم يخطر ميكل انجلو على باله لحظة واحدة أن يدنس حبه لفيتوريا كولونا . كان يعشقها عشقا طاهراً مبرحا وكان يعلم علم اليقين انها مخلصة لزوجها . لذلك أحبها بلا أمل وبلا رغبة . هام بها لفرط هيامه بالحب النبيل . وكان يعتقد أن مجرد وجودها حية قوة خارقة تسمح للانسان بألا ييأس من هذا العالم ومن صلاحيته للسمو والارتقاء

ولما توفيت فيتوريا كولونا فى شرخ شبابها ، ظلت حية فى قلب الفنان الحزين الذى لم يأسف إلا على شيء واحد وهو انه لم يستطع أن يقبلها فى جبهتها قبلة التمجيد والطهر

ولكن ميكل انجلو كان نادراً بين رجال عصره وكان الحب فى ايطاليا فى ذلك العصر قائما على خديعة الأزواج وعلى خداع العشاق . وعلى استهتار النساء وعلى اقتناص اللذة . وكان الحب فى فرنسا هازئا ساخراً متهكما بالعواطف الكبرى ميالا الى النزول على أحكام الفطرة ، لاينكر الحنان ولا ينكر الألم ، ولكنه يشفعهما بالسخرية والمرح وعدم الاكتراث

فالحب الفرنسى كان لايبكي إلا ليضحك ولا يرتفع عن المادة إلا ليسرع بالانحدار اليها خشية أن يخدعه الخيال وتغرر به العاطفة . وهذه الظاهرة النفسية نجدها فى اعمال (رابليه) ممثلة أبلغ تمثيل

ولقد حدث فى ذلك العهد أن اعتقد الناس أن الحب الذى يخلق الجمال والفن والشعر ويعتقل النفوس والعقول ويتدرج بها نحو المدنية ، لايمكن أن يخضع للقوانين الاجتماعية بل يزداد تمرداً عليها كلما اشتد وقوى وعظم

هذا العارض الفكرى شعر به المصلحون والاخلاقيون ووعاظ الكنائس، فاستنكروه وبذلوا جهدهم لتحويل الحب من قوة عمياء لا تعرف الخير ولا الشر الى قوة بصيرة تتجه آخر الأمر الى نفع الأسرة وخدمة الانسانية

ومع ذلك وبرغم الاصلاح الدينى الذى نادى به لوثر وقامت به الكنيسة الانجليكانية

سلطان الغرائز وتبيح ميول الجسد . ثم يعدل الالمان والهولنديون والانجليز عن النظر الى الحب نظرة طبيعية مادية

والحقيقة أن هذه الشعوب ـ المعروفة بنزعتها التخيلية وميلها الى الدين والتصوف ـ كانت فى نفس الوقت شعوبا قوية الابدان ذات رغبات مادية جامحة وذات سذاجة مزهوة عجيبة فى محاولة تحقيق هذه الرغبات

ولقد اشتهر أهل هولاندا بالبدانة والنهم وكانت موائدهم حافلة على الدوام بمختلف ألوان الطعام ونساؤهم جد ممتلئات مترهلات

وكانت المرأة الالمانية كما صورها الرسامون القدماء مخلوقة بريئة المحيا ساذجة التقاطيع ضئيلة الصدر . ولكن بروز بطنها كان يدل أبلغ الدلالة على حيويتها الكامنة وعلى خصبها وقدرتها على الأمومة

وأما فى انجلترا فقد ظهر الملك هنرى الثامن وتمثلت فيه نزعات الحب المادية فكان لا يتزوج إلا ليطلق ولا يعشق إلا ليستمتع ثم يأمر بقتل معشوقته

فهذه الشعوب الشمالية كانت أقرب الى الفطرة فى شؤون الحب . ولكنها كانت مع ذلك شديدة الاحساس بالدين ميالة الى الخيال والتصور . ولقد استطاع فنانوها ابتداع شخصية فتاة عذراء صبيانية الروح ناحلة المظهر ، أرق وأعذب من شخصية العذراء الملائكية التى ابتدعها قدماء الفنانين الايطاليين

وعليه فقد اتخذ الحب عند الشعوب الشمالية صورتين مختلفتين : الرغبة المادية الطبيعية والخيال الحالم الرقيق . ثم تطور الحب تحت تأثير التعاليم الدينية الطهرية فتضاءل مظهره المادى الصارخ وابتردت ناره المتأججة

وامتد الاصلاح الدينى الكلفينى الى فرنسا من جنيف واتفقت تعاليمه مع نزعة الفرنسيين الى المنطق وايمانهم بسلطان العقل . ولكن ذلك الاصلاح الدينى ضيق من أفق الحب وعارض الطبيعة الفرنسية المولعة بالحرية والفنون واتخذ من التوراة مثالا أعلى وذم فتنة الحواس وحصر الحب فى دائرة العائلة وأقره لبقاء النوع ، وجعل المرأة الجديرة بالحب هى المرأة الولود كسارة وراحيل ورفقه . أما العذراء فلم يعد لها فى هيكل تمجد فيه

ولقد ظهرت فى فرنسا فى القرن السابع عشر شيعة تدعى (الجانسينست) نادت بمثل تلك التعاليم وحذرت الناس من تأثير الجمال ومن سطوة الحب ومن البحث عن اللذة فيه

ولكن الحب كان إذ ذاك مثار الحياة فى المجتمع الفرنسى الجديد فى قصر رامبوييه وكانت الحضارة الفرنسية قد خلعت عليه لونا جديداً هو العقل

كان الحب فى صالون المركيزة دى رامبوييه الحافل بالكتاب والشعراء وأعضاء الاكاديمية حبا مهذبا مصقولا دقيقا مركب العواطف غزير الافكار والتصورات أشبه بلهو عقلى رفيع تمازجه روح الفروسية

والواقع أن الاخلاق الفرنسية فى القرن السادس عشر كانت غليظة والاحساسات عنيفة والعواطف حادة ولهجة الكلام نابية ، وكانت الحروب الاهلية قد خلفت فى الطباع ضربا من الخشونة المنكرة ، فأرادت سيدات قصر رامبوييه تهذيب تلك الطباع وتعدين تلك النفوس وصقل أخلاق الطبقة العالية والاستعانة بالرقة والظرف وفصاحة المنطق وحسن الذوق وجمال التفكير للوصول الى ذلك الغرض والتلطيف من غلظة الرجل وغلظة العلاقات بين الجنسين

ولكن أولئك السيدات أسرفن فى الاناقة والفصاحة وسمين الأشياء بغير أسمائها وتحذلقن وترفعن فأصبح البعض منهن مثاراً للسخرية . كن يقدسن الحب ولكن هذا الحب المسكين كثيراً ما تغذى على أيديهن بالكلمات المعسولة والعبارات المنمقة لا بالعاطفة الصادقة البسيطة . كان لهن عشاق من كبار الاشراف والأدباء يحبونهن حباً طاهراً عقلياً فلسفيا . وكان لهن عشاق من طراز آخر يحبونهن حباً مغامراً متباهياً مجنونا ويفاخرون بهن ويقاتلون فى سبيل شرفهن وينشدون المجد العسكرى من أجلهن ويدمجون روح الفروسية فى أبسط علاقة لهم مع امرأة

ولقد تركزت هذه الروح وهذا النوع من الحب بعد مائتى عام في رواية الفرسان الثلاثة وفى شخص الفارس دارتنيان الذى أبدعه خيال الروائى ديماس الكبير

وكان كل أولئك الاشراف والفرسان يغشون قصر رامبوييه ويطارحون السيدات المتحذلقات غراما رفيعاً تكتنفه الخطب الطويلة وتحف به الجمل المختارة والمنظومات الشعرية

وكانوا يزورون صالون ماريون دى لورم وصالون الحسناء الشهيرة نينون دى لانكلو

ولم تكن نينون دى لانكلو بغيا كما زعم البعض بل كانت امرأة حرة لا تمنح ذاتها للجميع مقابل المال بل تتخير من الرجال أحبهم الى نفسها وأقربهم الى طبيعتها حتى اذا ما ضجرت منه أعرضت عنه وانصرفت الى سواه

وكانت امرأة مثقفة حاضرة البديهة سريعة النكتة لا تعرف الثبات فى الحب وتعتقد

أن من الممكن أن يستحيل الحب بعد موته الى صداقة منزهة عن الغيرة مجردة من الحقد والبغض

ولقد كان فى وسعها أن تجعل من عشيقها الذى أعرضت عنه صديقا لها ، وفى وسعها أن تظل صديقة مخلصة للعشيق الذى أعرض عنها ، وذلك لانها لم تعرف الحب العنيف أبداً ولم تستسلم بمجموع قوى نفسها واحساسها لأى رجل . وكانت متفوقة فى نقدها الصارخ للاشخاص وفى عباراتها المتهكمة اللاذعة وفى قدرتها على تصوير جوانب الضعف فى الشخصيات الكبيرة وحصرها وتركيزها فى جملة مقتضبة سرعان ما تتناقلها الألسن وتذهب مذهب الامثال

ولقد عمرت نينون دى لانكلو طويلا وعاشت حوالى مائة عام وتوفيت محبوبة من الجميع وكانت واسطة العقد بين القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر فى فرنسا

ومع ذلك فقلب المرأة الفرنسية فىالقرن السابععشر لم تمثله الغانية نينون دى لانكلو بل مثلته الكاتبة الذائعة الصيت مدام دى لافاييت فى بطلة قصتها الخالدة « البرنسيس دى كليف »

صورت الكاتبة فى هذه القصة شخصية امرأة تتجلى فيها مختلف نزعات الحب الشائعة بين نساء عصرها

شخصية امرأة نقية القلب خالصة النفس تحب حبا قويا عميقا وتذهب فى هذا الحب الى حده الأقصى ، وتشعر فى نفس الوقت بواجبها الزوجى وتريد أن تؤديه كاملا ، ولا تسمح للحب بأن يطغى علىبصيرتها ويخضععقلها ويحول بينها وبين تأديتها ذلك الواجب . فهى مخلصة لحبها ومخلصة أيضا لزوجها وان كانت لا تحبه

هذه الشصية النبيلة التى تحب على الرغم منها ولا تريد أن تسقط تحت تأثير هذا الحب بل تجاهد لتأدية واجبها ما استطاعت الى ذلك سبيلا ، هى الشخصية التى تمثل معظم نساء فرنسا فى ذلك العصر والتى تنعكس فيها نزعتهن الغرامية السائدة

والواقع ان الحب علىهذه الصورة المجاهدة كان فىعرف الفرنسيين إذ ذاك باعثا على صقل الاخلاق وعلو الهمة واستكمال نقص الطبائع والاتجاه بالفرد نحو حياة جميلة مجيدة

ولم يكن الشعب الفرنسى وحده ميالا فى ذلك العصر الى العواطف نزاعا الى الحب ، بل كان ملكه أيضا ، لويس الرابع عشر ، أولع ما يكون بالغرام وأفتن ما يكون بالغادات الحسان

احب لويس الرابع عشر فتاة فى الثامنة عشرة ذهبية الشعر زرقاء العينين رقيقة المظهر حيية خجولا يسحر جمالها الانظار ويأخذ بمجامع الافئدة

أحب الملك لويزا دى لافاليير ثم انصرف عنها بعد بضع سنوات . أما هى فقد أخلصت له الود وأحبته حباً صادقا ، وكانت فى خلال اتصالها به تعتقد انها ارتكبت خطيئة مروعة وان الله لن يغفر لها هذا الذنب وان من واجبها أن تسمو بهذا الحب جهد الطاقة وتخلص فيه كل الاخلاص كى تشفق عليها العناية وتمنحها الصفح والمغفرة

ولقد حدث عند ما تبرم بها الملك ومال عنها الى مدام دى مونتسبان ان احتملت عذاباتها بنفس هادئة ، وصبرت على الاعراض والذل ، واعتبرت آلامها عادلة ، ورضيت بها تكفيراً عن خطيئتها ، ثم قدمت هذه الآلام الى الله واتجهت اليه بالصلاة والتقوى عساه أن يرحمها ويغفر لها ماضيها

واشتد بها العذاب وضاق صدرها ذرعا بخيانة عشيقها فوطنت العزم على الانقطاع لخدمة الله وودعت العالم ودخلت دير الكرمليات حيث ماتت بعد ست وثلاثين سنة قضتها فى الزهد والتقشف والعزلة والتكفير

ومن المهم ان نلاحظ ان بطلات الحب القديمات أمثال ايزولت وفرنشيسكا دى رميني، كن لا يحفلن بنتائج هذا الحب ولا يندمن عليه ولا يشعرن حياله بتبكيت الضمير . أما بطلات القرن السابع عشر فكن يعتبرن الحب خطيئة مع اخلاصهن له وتفانيهن فيه

كن فى صميم قلوبهن مسيحيات كاثوليكيات يطالعن أعمال القديس فرانسوا دى سال ويذهبن الى الكنيسة فى بعض الأحيان لسماع الوعظ الدينى ، ويجادلن أصدقاءهن فى البحوث الاخلاقية واللاهوتية ، ويفحصن ضمائرهن إذا ما اعتزمن الاعتراف الى القسيس، ويذرفن الدموع فى الكنائس كلما قام كاهن نابغ بتأبين شخصية عظيمة وشرع يتحدث عن القصاص الذى يعده الله فى العالم الآخر للمذنبين المستهترين

هؤلاء النسوة كن يقعن فى مستهل شبابهن تحت تأثير الحب المحرم وكن يعرفن اللذة والألم ، ولكن تقديسهن الحياة الروحية كان يستيقظ فى نفوسهن متى بلغن سن الكهولة وذبلت زهرة جمالهن ، فكن يلجأن حينئذ الى الله مدفوعات بقوة سرية لا تقبل المقاومة ، فيلوذ البعض منهن بالصلاة والتقوى ، ويدخل البعض الآخر الدير كما فعلت لويزا دى لافاليير

ولقد حفل القرن السابع عشر بهذا الصنف من النساء اللواتى بالغن فى التمتع وبالغن

فى التدين والتكفير . ولـكن الظاهرة الهامة التى يجب أن نسجلها والتى مهدت لاساوب الحب العابث فى القرن الثامن عشر تتلخص فيما يأتى :

عند ما عصفت الشيخوخة بالملك لويس الرابع عشر ، ارتد الملك نفسه الى عقله وثاب الى رشده ، وعاد هو الآخر الى التدين والتقوى ، فاقتدى به رجال ونساء البلاط وطغت على الشعب موجة من التدين « الاجبارى » وأصبحت الفضيلة مفروضة على الناس فرضاً ، فتولد من ذلك ضرب من النفاق واخفاء الذنوب تحت مظاهر الفضيلة ، وستر الملذات بقناع التدين . وهكذا مهد الطريق للحب النزق العابث الطائش الذى انفجر فى القرن الثامن عشر

الحب في القرن الثامن عشر

عند ما يذكر اسم القرن الثامن عشر يتصور المرء على الفور صالونا مملوءاً بالتحف الفنية الشائقة ، والأثاثات الجميلة المقوسة الجوانب ، والاغطية والاستار الحريرية تتفتح فيها الازهار كما تتفتح فى الحدائق

كل شيء فى هذا الصالون يدعو الى الحب ويوحى بالتمتع

تحررت المرأة من الازياء الثقيلة التى كانت شائعة فى البلاط القديم وارتدت أثوابا فى شكل سلال تبرز تقاطيع بدنها وتظهر بياض عنقها وذراعيها وتزيد فى رونقها وبهائها

تعلمت المرأة كيف تستخدم المساحيق تضاعف بها جمالها وتخفى بواسطتها آثار السنين

وكان الرجل يرتدى أثوابا من المخمل ويرسل شعره خلف رأسه ويعقده بشريط اسود فيبدو ساحراً وعليه رشاش البودرة

كان الرجل فاتنا كالمرأة . وكان كل منهما لا يعيش الا للتمتع باللذات والتمتع بأحاديث الصالونات

فقد الجنسان حب العواطف العظيمة ، وتبدل الزمن ، واختفت «مودة» المجادلات اللاهوتية وحلت محلها بين الطبقات الرفيعة « مودة » المناقشة فى الموضوعات العلمية

وشاعت مطالعة القصائد الشعرية الغثة والقصص الصغيرة السطحية ، وأصبح الحب نزوة عارضة

تحللت الأخلاق وفسدت المشاعر ، وجرت العادة ألا يحب الرجل امرأة واحدة ويخلص لها ، بل يتنقل من هذه الى تلك ولا غرض له سوى اللهو والتمتع

هذه هى الصورة الغالبة لما كان عليه القرن الثامن عشر قبل ظهور الفيلسوف جان جاك روسو ، صورة قوم طائشين عابثين يتخذون من الحب ملهاة لحواسهم وعقولهم

وهذه الصورة تراها واضحة المعالم فى مسرحيات ماريفو وفى بعض روايات فولتير وفى بعض الاقوال المأثورة عن العلامة بوفون

السخرية . كان دليلا على عقل قاصر وروح صبيانية ونفس ساذجة لا تستحق غير الابتسام والشفقة

كان الشعور بأبدية الحب يعتبر نقصا فى الذكاء . وكان الايمان بوفاء المرأة أو وفاء الرجل برهانا على الحماقة والبله

وكانت فكرة استمرار الحب أبعد ما تكون عن النفوس والعقول

لم تكن الغاية من العلاقات بين الجنسين إلا مرضاة احساس طارىء وولع وقتى وجاذبية مصيرها المحتوم الى الزوال السريع. لذا كان الرجال والنساء يحبون بالعقل فقط، ومن المعروف أن العقل وحده لا يكفي للاحتفاظ بامرأة واحدة ، وانه عاجز كل العجز عن تجديد الاحساسات التى تشعر بها حيال من تحب ، والتى تفقدها العادة رونقها وسحرها

وإذن فالتنقل من حبيب الى حبيب كان شائعاً بين النساء والرجال، وسهولة الاتصال كانت شائعة أيضا كسهولة الانفصال والقطيعة ، فترتب على ذلك ان فقد الحب لذته عند طائفة كبيرة من العشاق المستمتعين العابثين ، وعافته نفوسهم ، واشمأزت منه فى مظهره العدى ، وتاقت الى تبديله والتفنن فيه واضافة بعض العناصر الجديدة عليه كى لا يظل متشابها فى صوره وألوانه

أولئك العشاق الذين أفسدت الملذات عقولهم لفرط انهماكهم فيها ، والذين ألفوا الحب المادى ولم تعد تقنعهم بساطته ، أرادوا تجديده فأدخلوا عليه لذة أخرى وهى لذة التعذيب. تعذيب الشخص الذى يحبون. تعذيب المرأة باشعارها بذلها وفضيحتها وعارها . تعذيب المرأة تعذيبا جثمانيا يسيل منها الدموع والدماء كما كان يفعل المركيز دى ساد . ولا ريب ان هذا هو أحطُّ أنواع الحب وأبلغها دلالة على التحلل والفساد

ولكن هل هذه الألوان كانت كل الوان الحب فى القرن الثامن عشر ؟

وهل لم يكن الحب غير ذلك الهيكل العظمى الأنيق الذى لاقلب له ولا روح ؟

وهل لم تكن بين نساء فرنسا اخوات للبرنسيس دى كليف التى اشرنا اليها ؟

وهل فقد أهل فرنسا ذلك التوازن بين العقل والعاطفة الذى كان فى القرن السابع عشر قاعدة الاخلاق وقاعدة الحياة الخاصة ؟

كلا . لم يتبدل جوهر الحب . كان هناك رجال ونساء عرفوا كيف يحبون بكل

يرسمون باستمرار الحب وكيف يخلصون فيه وكيف يحتملون عذاباته كانوا أقلية . ولكن هذه الأقلية احتفظت بالمشعل المقدس وهى التى خلدت فى قلوبنا حتى اليوم

ومن بطلاتها الغادة (آيسيه) التى أحبت الشيفاليه دايدى حبا عاصفا مبرحا ورفضت الزواج منه كي لاتكون عقبة فى سبيل تحقيق مطامعه المشروعة ثم ماتت وفية له مؤمنة بخلود حبها ومؤمنة بوجود الله

والآنسة دى لسبيناس التى تحالفت عليها الكوارث وجردها القدر من عناصر الجمال والصحة والثروة والتى هامت بالحب المطلق وذاقت من عذاباته الوانا ، ولخصت قصة حياتها فى هذا الخطاب الوجيز الذى أرسلته الى من تحب والذى يعتبر فى اللغة الفرنسية أجمل وأتم خطاب غرام :

« ياصديقى العزيز . انى فى كل لحظة من لحظات حياتى لا استطيع إلا أن احبك وانتظرك واتألم ! »

ولقد تحقق أيضا هذا الحب الوفي الصادق بين الشيفاليه دى بوفلير ومدام دى سابران، وبين سان لامبرت ومدام دودتو ، وبين الدوق دى ريشيليو ومدام ميشلان التاعسة المسكينة التى انصرف عنها حبيبها فماتت غما وحسرة !

وهناك سيدة كانت تدعى مدام دى لابوبلنير وكان يعتقد الناس انها امرأة لاقلب لها ولا خلق ، ومع ذلك فقد أحبت وانتزع الحب من صدرها أروع الصرخات فى رسالة وجهتها الى من تحب وجاء فيها :

« يافؤادى العزيز . لماذا تكتب الىَّ فى عبارة جافة وانا لااتنسم الحياة إلا من أجلك ولا اعيش إلا لك ولا اعبد سواك ؟

« اعلم ان شواغلك العديدة تحول بينك وبين الافضاء الىَّ بما يقلق نفسك . أنا واثقة من ذلك . ولكنى وا آسفاه لم أجد فى خطابك تلك العواطف والعبارات التى تصدر عن القلب والتى يلذ للانسان مطالعتها بقدر مايلذ له أن يكتبها

« انى لأحس وانا أكتب لك بعاطفة غريبة تضرم نار الحمى فى بدنى وتبعث فى نفسي القلق والاضطراب ، انى لمشرفة على الموت لأنى لست قريبة منك . وهذا البعد سيكلفنى حياتى ، انى ليائسة من حياتى ، فاعلم انى لم أحب احداً سواك واني أتعس امرأة فى هذا العالم ! .. »

هذا هو الحب الصحيح الجدير بابرسيس دى سيت وهى ...
العاطفة المشبوبة التى شعرت بها الاميرة لويزا دى كونديه من نحو رجل من عامة الاشراف يدعى مسيو دى جرفيزيه

لم تستطع بالطبع أن تقترن به فهى تحبه بلا أمل وتكره أن يقول عنها الناس انها جميلة لأنها لا تريد أن تكون جميلة إلا فى نظره فقط !

ولقد اضطرت نزولا على حكم الدين والواجب الى قطع هذه العلاقة البريئة بمن تحب ، ثم انتهت حياتها الى الدير حيث لاذت هى الاخرى بحب الله الذى يسع كل عاطفة ويعزى عن كل ألم

هؤلاء النساء ظهرن فى ذلك العصر الفاسد واشتهر معظمهن فى النصف الثانى منه وأولعن بحياة القلب والاحساس ، متأثرات بالفيلسوف جان جاك روسو الذى دعا الى العودة الى بساطة الطبيعة ونادى بطيبة القلب البشرى ومجد العواطف وقدس الحب مقترنا بالفضيلة مندمجا فى عبادة الله باكيا منتحبا مشرئب الوجه نحو السماء

هذه النزعة العاطفية المنحدرة من جان جاك روسو أثرت فيما بعد فى نابوليون نفسه وفى رسائله الاولى الى جوزفين حيث نجد اسلوبا قريب الشبه من الاسلوب الذى ابتدعه روسو فى قصته المشهورة (هيلويز الجديدة) وفى الرسائل الغرامية التى كان يتبادلها الفارس دى سان برو وحبيبته جولى بطلا هذه القصة

ومع ذلك فقد اختفى هذا الحب العاطفى المضطرم فى عهد امبراطورية نابليون وحلت محله غلظة الجنود ورغبتهم الفطرية وميلهم الى الاستمتاع المجرد قبل أن يعاجلهم الموت الواقف لهم فى ساحات الحرب بالمرصاد

وهكذا ارتد الحب الى دائرة الغريزة وتجرد من الشعر واتخذ طابعا شعبيا موسوما بالطلاقة والمرح وعدم الاكتراث . وكان الامبراطور يقر هذا الحب على شرط أن يعرف الجندى كيف يترك محبوبته متى دوى نفير الحرب ، وأن يقترن بها بعد عودته من ميدان القتال ، وأن ستولدها أبناء عديدين يصلحون لخدمة الوطن وخدمة الامبراطور

ولو قع أن خيبة جوزفين لنابوليون بدلت نظرته الى الحب وأضعفت ايمانه بالعواطف وزعزعت ثقته بمبادىء جان جاك روسو . وكان بطبيعته مولعا بالقوة والعنف فعاد الى المبادىء الرومانية المتأصلة فى عنصره وبات يعتقد أن الحب مرض ينتاب النفس فى زمن الشباب ثم يصبح لدى الرجل الكامل ضعفا فى الذهن ونزعة بغيضة الى قتل الوقت ،

الوقت الثمين الذى يجب أن ينفق فى سبيل عظمة الدولة وقوتها

فالحب فى نظر نابليون رغبة لايستفيد منها المجتمع إلا اذا انتهت الى الزواج والأمومة فمتى تم الزواج وجب أن ينصرف الرجل الى القيام بواجباته العامة ، والمرأة الى حراسة البيت والسهر على النوع

وهكذا أراد الامبراطور أن يحصر المرأة فى دائرة البيت وأن يجعل منها أما ولوداً فحسب وأن يجدد عهد الرومان ، ولكن ذلك العبقرى الذى ألم بكل شىء ، لم يفهم طبيعة المرأة الفرنسية التى رفضت الطاعة العمياء لزوجها ، وأبت أن تكون طوال حياتها أما ومرضعا فقط ، وتطلعت الى شىء من الحرية فى عواطفها ، وظلت فى خلال الحروب النابوليونية تطلب الحب . وعندئذ ظهر الاحساس الغرامى من جديد واتخذ طابع القرون الوسطى وسرت فيه روح الفروسية لأن الحرب كانت إذ داك غاية عليا وجهداً متواصلا منقطع النظير

الحب في العهد الرومانتيكى

وفى العصر الحديث

لما ساد الهدوء أوربا بعد حروب نابليون ، وأصبحت البطولة بلا عمل ، وعاد الملكيون الفرنسيون من المنفى حاملين معهم اسرافهم فى التدين وإسرافهم فى الحرص على التقاليد ، استفاق الشباب الأوربى فألفى نفسه يحيا فى شبه حمى لا غرض لها وفى شبه استنكار وتبرم واشمئزاز من كل شىء

كانت ريح البطولة المنبعثة من نابليون تطوح بالشباب فاختفت البطولة واستولى على نفوس الشباب ضرب من الاضطراب الغامض المبهم

عدلوا عن مطالعة بلوتارخوس وانصرفوا عن تمجيد البطولة والأبطال وجعلوا يدمنون قراءة شاتوبريان وبيرون عواطفهم ممثلة فى شخص (رينيه) الذى ابتدعه هذا الكاتب ، وفى أمثال هذه العبارات التى صورهم فيها الشاعر الفريد دى موسيه :

« قضى سادة العالم على شباب اليوم بالحياة فى العطلة والضجر فتباعدت عنهم الأمواج المزبدة التي كانوا قد هيأوا سواعدهم لمصارعتها . انتشر النفاق في الاخلاق واقترنت الأفكار الانجليزية الطهرية بنزعة التظاهر بالتدين واختفت البشاشة وزال الفرح وأنكرت كل فضائل الارض والسماء . واضطرت النفوس الطلقة المتأملة المتحمسة الباحثة عن اللانهاية فى الأفكار والعواطف ، أن تطأطىء هاماتها وتبكى . وأما الشباب فقد وجدوا لقواهم المتعطلة منصرفا جديداً وهو اصطناع اليأس ! »

تلك كانت حال الشباب

اصطنعوا اليأس وبالغوا فيه فأصبح جزءاً من طبيعتهم

فقدوا الايمان بفضيلة العمل وفقدوا الايمان بالعالم الآخر أو خيل لهم أنهم فقدوه . فلم يعد لهم من عزاء فى غير الشعر والحب

وهكذا نشأ الحب الرومانتيكى

الحب المفتعل المقرون بالعبارات الادبية المستظهرة من الكتب ، الحب الفصيح الثائر المريض الذى يتبرم بالحاضر فيفر الى الماضى ، الحب الذى لا ينفك يتحدث عن الموت ، الحب الذى لابد له من إطار وهمى ليعيش ، لابد له من ضوء القمر وجمال البحيرات وأصوات البلابل وهبوب العواصف ورنين أجراس المساء ، الحب الذى لا يجد فى نفسه كفايته بل يتطلع الى المظاهر الخارجية ليبحث عن عاطفة قوية غريبة عنه

ساد هذا الحب الموهوم وظهر عشاق خلدوه . عشاق كانت لا تطيب لهم الحياة ولا يطيب لهم الحب الا فى منابت اسكوتلنده أو سواحل ايطاليا أو بين حجرات غريبة التنظيم حافلة بالرسوم القوطية والأسلحة الشرقية والنارجيلات الملفوفة وطنافس بلاد فارس وشعر الشرق البعيد

شغفوا بهذا الحب وشغفوه بهذه المظاهر ليميزوه عن الحب الهادىء العاقل الذى كان شائعاً بين الطبقات الوسطى والذى كان مجرداً من كل ذوق فنى

ولقد حدث من فرط اهتمام أولئك الشباب بالشعر والحب والمرأة ، ان لاحت في جو الأدب شخصية نسوية جديدة تمخضت عنها عبقرية الكاتبة جورج ساند . شخصية تمثل عدداً كبيراً من نساء ذلك العصر . ألا وهى شخصية المرأة الشاحبة اللون المسترخية البدن المولعة بالخيال المصابة فى الغالب بعلة صدرية ، والتى تشكو على الدوام من ان زوجها لا يفهمها وأنه غليظ الطبع مستبد الخلق معدوم الذوق يهتم بالمسائل العامة ويهمل امرأته غير مكترث لحاجتها الى الحب القوى الملتهب

ثم لاحت بجوار هذه شخصية أخرى ابتدعتها عبقرية الفريد دى موسيه . شخصية تمثل معظم شباب ذلك العهد . شخصية العاشق « رولا » الذى يمتاز بنبوغه فى الخيال والشعر وبعجزه عن القيام بأى عمل نافع وباعتقاده انه ملك سقط من السماء فى عالم غير جدير به . وهو الى ذلك شاحب اللون ايضا ومصدور وغيور كعطيل المغربى ونفسه تحدثه على الدوام بالانتحار أو بقتل عشيقته

هذا الشاب الذى نحتقره اليوم ونعتبره رجلا فاشلا ، هو الذى كانت تحبه تلك المرأة ذات المزاج المريض وتتمنى الاقتران به

وجملة القول ان أولئك العشاق كانوا يطمحون الى حب مخيل لا وجود له

كانوا ينشدون الحياة كما يحياها أبطال القصص الوهمية . كانوا يتعمدون الخروج على أوضاع المجتمع لا بدافع طبيعى صادق بل لمجرد الولع بالتمرد ومخالفة العرف

تجاه هذه الطبقة ظهرت طبقه اخرى من الرجال العمليين تلامذة فولتير والنساء الفاضلات التقيات المتزنات ، انصرفوا جميعا الى تشييد الأسر المحترمة وتشييد البيوت التجارية الثابتة على الزمن . فأصبح المثل الأعلى عنـد هؤلاء هو الحصول على الثروة لا البحث عن الحب . غير أنهم أفرطوا في عبادة المصلحة وطلب المال وأفرطوا فى اقامة صرح الزواج على المصلحة المادية وحدها ، فانتهى بهم الأمر إلى ازدراء الفنون والآداب وكرهها واعتبار الفنانين والأدباء صعاليك متشردين يجب الحذر منهم واجتناب التشبه بهم

وظل الحب الرومانتيكى سائداً فى أوربا حتى عادت الامبراطورية ثانيا الى فرنسا فتبدل شكل الحب وأصبح مزيجا من الخلاعة والعاطفة القلبية والنزوة الجثمانية وتمثل فى نساء مديدات القامة ممتلئات البدن منسرحات الاكتاف مستديرات الاعناق يبغضن النحافة ويكرهن الضعف ويجملن أنفسهن بالأثواب الفضفاضة المصنوعة على شكل سلال . ويجملن بيوتهن بمقاعد من طراز لويس الخامس عشر أو السادس عشر ، ويتجهن بعاداتهن وأساليبهن فى الحب الى ما كان شائعا فى القرن الثامن عشر

وراق الامبراطورة أوجينى هذا اللون من الحياة ولـكن سيدات بلاطها لم يستطعن احياء العصر الغابر

لم يكن بينهن امرأة كمدام دبيبنيه أو المارشاله لوكسمبورج . وكن ناقصات الثقافة غير متوافرة لديهن عناصر الذوق الفنى الخالص. وكانت لهن فضيلة واحدة وهى البشاشة الممزوجة بالظرف

وأما الحب الذى انحدر منهن فقد كان لهواً أنيقا تطور عند الشعب واستحال إلى تفكه بدسائس الصالونات ومهازل المجتمع ، وأما بطلات هذا الحب الشهيرات كمدام دى كستليون ومدام بيلانجيه فقد كان ينقصهن ذلك السحر الشامخ الفطرى الذى امتازت به فى مضى صوفى ارنو أو مدام دى بومبادور

وكان أن وقعت الحرب السبعينية بين فرنسا وألمـانيا وهزم فيها الفرنسيون فانحطت قواهم المعنوية أول الأمر وأحسوا مهانة الضعف والخذلان، ولـكنهم ما لبثوا أن وحدوا صفوفهم وأيقظوا فى جماهير الشعب عاطفة الوطنية واتجه مفكروهم وعلماؤهم صوب ألمانيا يبحثون عن سر انتصارها ورقيها فأدركوا أن الروح العملية وسيادة النظام وفضائل الطاعة هى التى مكنت الألمان منهم وعقدت لهم لواء النصر

عندئذ ظهر فى فرنسا مذهب الأدب الطبيعى (الناتورالسم) . وكان غرضه تحرير

الفكر الفرنسى من لوثات الخيال واحكام الصلة بينه وبين الواقع والقضاء على النزعات الرومانتيكية المريضة واشعار الجماهير بحقائق الحياة

وسادت الروح العملية هذا الادب واهتم زعماؤه وفى طليعتهم أميل زولا بتصوير الظواهر المادية المحسوسة غير حافلين برسم الحياة النفسانية التى كانت تبدو لهم مركز العواطف المجردة أى مركز الضعف والوهم والخيال

غير ان هـذا الأدب لفرط اهتمامه بالماديات لم يترك لنا صورة واضحة عن المرأة الفرنسية أو الأوربية فى ذلك العهد وعن طريقتها فى الاحساس وأسلوبها الوجدانى فى الحب

والحقيقة أنه نزع عن المرأة تاجها وصورها كأنثى خاضعة لأحكام الفطرة مستسلمة لقوانين الطبيعة ، بعيدة كل البعد عن الشعور بالعواطف الكبيرة والفواجع النفسية . فترتب على ذلك ان انقطعت الصلة بين مذهب الأدب الطبيعى وبين المرأة كانسان حساس ثم بينه وبين عاطفة الحب كما كانت شائعة فى ذلك الوقت

ولكن انقلابا حدث فى سنة ١٨٨٠ بظهور الكاتب الروائي بول بورجيه الذى عاد بفنه الى تقاليد الأدب الفرنسى وأحدث اعمق الأثر فى أدباء عصره وأرصد صفوة جهوده على دراسة قلب المرأة

وتبين عقب ظهور بول بورجيه انالنساء الأوربيات فى ذلكالعهد كن أغزر ثقافة من أمهاتهن وأرحب فكراً وأعمق عاطفة وكن يقدسن الحب ويطالعن أعمال الكاتب الانجليزى (راسكن) والفيلسوف الروسى (تولستوى) ويسافرن الى ايطاليا ويعجبن بجمال الفنون ويبتعن نسخا من صور الرسام بورن جونس

هؤلاء النساء أقبلن اقبال الظامىء على مطالعة قصص بول بورجيه أمثال (جريمة حب) و (اللغز القاسى) و (أكاذيب) وأخذن بها وروجن الدعوة لها واغتبطن إذ وجدن فيها الروائى الشاب يصور المرأة مخلوقا من جسد وروح تكتنفه الاسرار والألغاز لا مخلوقا من لحم ودم فقط خاضعا لأحكام الفطرة الوضيعة كما صوره أقطاب مذهب (الناتورالسم)

ولكن بورجيه أسرف فى تملق النساء ليفوز بالشهرة ، وأسرف فى تصوير الحب المحرم ليجذب اليه عامة القراء ، فتأثرت برواياته طائفة من النسوة العاطلات الموسرات

وتضحية الواجبات الزوجية من آجله

ولقد حمل بعض النقاد إذ ذاك على بول بورجيه وتلامذته حملات شديدة واتهموا أدبهم بافساد الاخلاق وهدم نظام الأسرة ، فأثرت هذه الحملات ، وبدل بول بورجيه طريقته ولم يكتف بالعدول عن تصوير أزمات الحب المحرم ورسم الفضائح البيتية والخيانات الزوجية فقط ، بل أسرف فى سلوك طريق آخر واعتنق المذهب الكاثوليكي وجعل يبشر به وأصبح مفكراً اجتماعياً رجعياً محافظاً

هذا اللون الصارخ من الحب المحرم الذى كان شائعا فى بعض الأوساط فى العواصم الأوربية الكبرى ، لم ينفذ الى الريف ولا سيما الريف الفرنسى حيث كانت الفتيات تنظر الى الحب الزوجي المشروع وهن جالسات الى نوافذهن يطرزن أو يطالعن أو يحلمن بالزوج الصالح والأمومة السعيدة

وكانت الفتاة المنتمية الى الطبقات الوسطى قد تهذبت وتعلمت وشعرت بحقها فى الحياة والحرية ، وأدركت أن المرأة لم تخلق للالم فقط وانها مساوية للرجل فى الحقوق وفى الواجبات . هذه الفتاة السائرة بخطى حثيثة نحو مبادىء وأفكار العصر الحديث كانت تطالع أعمال كبار الكتاب والشعراء وتقدر قيمة الحياة النفسانية ، وتقدر قيمة الحب المتبادل ، وقيمة الحياة الزوجية متى عقدت بين شخصين متفاهمين

ولكن موطن الضعف فى هذه الفتاة هو انها كانت على الرغم من يقظة عقلها الناقد ، عاجزة عن تصور حقائق الزواج اليومية وعاجزة عن اختيار الزوج الصالح لها ومؤمنة أخلص الايمان بان استعدادها للحب والاخلاص والوفاء جدير وحده بجعلها امرأة سعيدة فى حياتها الزوجية

وكان والدها يزوجها فى الغالب زواج مصلحة بالرجل الذى يريد ، ويزفها الى كهل متهدم أفنت اللذات قواه وتاقت نفسه الى الراحة ، فكانت المسكينة لا تكاد تهنأ بعامها الزوجى الأول حتى تواجه الحقيقة المرة فتصبح حياتها سلسلة متصلة من عذابات تدفع بها آخر الأمر الى التمرد والثورة

هذه صورة سريعة لما كانت عليه المرأة ونظرتها الى الحب والزواج قبل الحرب الكبرى

كانت مستنيرة مثقفة ولكنها كانت مع ذلك ضعيفة

[illegible] الرجل وتؤمن مثله بمستقبل العلم،وتعتقد مثله أن استخدام الآلات يمهد للسعادة،وارتقاء فن الطيران سيمحو الحدود التى تفصل بين شعب وشعب ، وأن المبادىء الانسانية لابد ستفوز ، وأن المخترعات العلمية ستوحد بين أجزاء العالم وتقضى على الفقر وتنشىء الفردوس فى هذه الدنيا

كانت تؤمن كالرجل بكل هذا ولا تستطيع لاهى ولا الرجل أن تتصور مايمكن أن يأتى به الغد !

ولقد حدث قبيل الحرب الكبرى أن طغت على أوربا موجة من الفرح بالحياة فأصبح الحب رقيقا لطيفا وتسامح الناس فى احكامهم على المحبين ، وأصبحت المرأة شبه ملكة فى بيتها وفى المجتمع ، واعتقد الكل أن عصر السعادة يوشك أن يشرق ، وعندئذ تلبدت السماء فجأة واكفهر الجو السياسى واستفاقت أوربا فى عام ١٩١٤ مخبولة مذعورة على قصف المدافع وصليل السلاح

الحب في الشرق الاقصى

فى الهند

تشبه الهند شجرة جبارة ذات فروع لا تحصى وجذوع كثيرة التشعبات تتلاقح فى ظلها الحياة والموت وفى اعماق غصونها تزهر المدنيات والفلسفات والأديان المتعددة المنوعة التى تحير العقل الاوربى اذا مافكر فى احصائها وتبتليه بشبه دوار

والواقع أن سكان تلك الارض الهرمة عرفوا الحضارة قبلنا بآلاف السنين كانت لهم أرفع وأسمى حياة روحية محاطة بالاسرار

فكيف كانوا يفكرون فى الحب ؟ وكيف كانوا ينظرون اليه ؟ وأى طابع اتخذه الحب عندهم ؟ وما ذلك النوع من السعادة الذى كانوا ينشدونه فى المرأة ؟

ان الاوربى عند ما يريد أن يتمثل حياة الهنود الخاصة ، يتصور على الفور نساءهم المتحجبات وأراملهم اللواتى يمتن على المحارق فى ملابار وابناءهم الذين يتزوجون فى سن الطفولة ، ثم يتصور بعد هذا حركة الاصلاح الأخيرة والجهود التى بذلت لتحرير نساء الهند فى القرن العشرين

ويترامى الفكر بذلك الفرد الاوربى فيذكر انه التقى فى لندن أو فى باريس بسيدات مهيبات الوجوه دقيقات الأيدى كبيرات العيون عليهن غلائل صفراء أو زرقاء أو وردية اللون يحجب قسم منها شعرهن الحالك السواد

ويتذكر فوق ذلك أن أولئك السيدات هنديات متعلمات متحررات يعشن فى أوربا كأخواتهن الاوربيات وتملأ نفوسهن عواطف وطنية متأججة

ولكن الاوربى يجهل كل شىء تقريبا عن حياة الهنود الغرامية ولا يستطيع أن يفهم أو يتذوق أعمال فلاسفتهم وشعرائهم الخاصة بالعلاقات الجنسية ، مع أن الهندى ينحدر من عنصر آرى كالاوربى، وهو أقرب اليه من معظم العناصر الشرقية الاخرى

***

[illegible] فى العصور القديمه امراة حرة فى التصرف بنفسها وحرة فى اختيار زوجها . ولـكن هذا المركز الذى كانت متمتعة به تغير كل التغير فى العصور التالية التى سجلها التاريخ

أصبحت العائلة هى التى تهىء الزواج ولا ترى أية غضاضة فى تزويج الصبيان والبنات قبل دور البلوغ

كانوا يزوجون البنت وهى لم تزل فى المهد بصبي لا يتجاوز الثالثة أو الرابعة من عمره . فاذا توفى الصبي مصابا بمرض من أمراض الطفولة حكموا على البنت بالترمل الدائم وبحياة ذليلة وضيعة ملؤها العـذاب . واذا أصبحت الزوجة أرملة وهى فى سن الشباب . أرغمتها التقاليد على ترك نفسها تحرق حية على نفس المحرقة التى تلتهم جثة زوجها

ولقد ثار المجتمع الهنـدى العصرى على حرق الأرامل وحجب النساء فى البيوت وعقد الزيجات بين الاطفال . ولـكن هذه الظواهر الاجتماعية لا يجب أن تجعلنا نعتقد بان الهند القديمة كانت تزدرى المرأة وتجهل الحب

والحقيقة ان فلاسفتها وشعراءها قد ابتدعوا شخصيات خيالية يتجسم فيها المثل الأعلى للجمال والحنان

ومنها شخصية (سيتا) التى أولع بها (راما) بطل الملاحم الشعرية ، وشخصية الغادة الساحرة العذوبة (ساكونتالا) ، وشخصية الحسناء الفاتنة (برفاتى) التى استطاعت أن تكون محبوبة من الاله الجبار سيفا

هؤلاء النساء الغامضات المحاطات بالأسرار يمثلن فى نظر الهنود جمال العالم ويتنقلن كالأزهار أو كالنجوم فى حكايات وقصص معقدة الاجزاء حافلة بأروع الأخيلة وأفتن الاستعارات والمجازات

ولقد رسمتهن الأساطير كنساء ذوات سحر بدنى واضح واكتمال انثوى ملحوظ وأجسام مرنة لينة تنثنى تحت اثداء وارداف ثقيلة

ورسمتهن الأساطير أيضا كنساء ذكيات لبيبات ذوات قلوب يشيع فيها الحنـان ونفوس تضطرم اخلاصا ووفاء لعاطفة الحب التى تشعر بها

ولقد ظهر فى القرن السابع شاعر هندى كبير يدعى (بارتر هارى) دخل الدير سبع مرات وخرج منه سبع مرات لفرط حبه المرأة وحبه مفاتن العالم وتردده بين نعيم الارض ونعيم السماء

هذا الشاعر الذي عرف الحب وخبر المرأه تحدث عنها فى العبارات الآتية حديثاً يمثل عقلية الهنود فى ذلك العصر :

« ان المرأة هى الفرح والألم ، هى القلق والراحة ، هى التى ترغمنا نظراتها على التوقف أثناء السير ، ولولا اعتراضها طريقنا وتحويلها إيانا عن غاياتنا لكان من السهل علينا أن نسرع فى عبور أوقيانوس الحياة الزاخر بالألم

« إن مشعل الحكمة يظل متألقا ما دامت عيون النساء الجميلات لاتلقى عليه وهجها !

« ومع ذلك فأى غرض أعلى تنشده الطبيعة من حاسة البصر المركبة فينا ؟ لاشك هو رؤية المرأة ؟

« وأى غرض لحاسة السمع ؟ لا شك هو الانصات لحديثها !

« وأى غرض لقدرتنا على التفكير ؟ لاشك هو تأمل شباب المرأة وجمالها !... »

هذا ما قاله الشاعر وهذا أسلوبه فى تمجيد المرأة . ولكن ظمأه الدائم الى الحب لابد تعقبه خيبة الاصطدام بالواقع ، وعندئذ نراه يلعن المرأة فى قصائد أخرى وينظر اليها على حقيقتها فيجدها ناقصة العقل ناقصة الخلق فيفر منها ويلجأ الى التنسك والتقشف والزهد

وهكذا الهندى يطمح الى احتضان الجمال ولكنه لايلبث ان يرى الجمال سرابا فيهرع الى التصوف ويتطلع الى جمال الله !

هو يحنو على المرأة التى يحب ويحترمها ويشتهيها ويود أن يحب من خلالها الجنس البشرى كله ، ولكن هذه النزعة المتأصلة فى نفسه تشعره بأن المرأة لا تكفيه وان هناك عشاً آخر يكمن خلف جمالها القيد بالارض أبداً !

وفى وسعنا أن نتبين نزعة الحب ومركز المرأة عند معظم الهنود المعاصرين من خلال القصة التى وضعها الشاعر الكبير تاغور وهى «البيت والعالم»

فى هذه القصة نرى شخصية امرأة هندية ذكية وحساسة تدعى « بيالا » ، اقترن بها البرنس « ميكيل » وكانت زوجته الوحيدة ، فلم يحجبها بل وثق بها وأطلق لها حريتها التامة . ونرى فى الوقت نفسه هذا الزوج الذى تخرج فى الجامعات الانكليزية ، رجلا لا رذائل له ولا سلطان للتقاليد عليه ولا أثر للميول العنيفة فى نفسه ، يحب امرأته حبا زوجيا عميقا خلصا من شوائب الأثرة والأنانية

نراه يتحدث عن المساواة بين الرجل والمرأة فى الحب ويريد تحقيق هذه المساواة

ولكن زوجته «بيالا» تخالفه فى الرأى وترفض تلك المساواة ولاتريد ان يجلسها الرجل على عرش ، بل تطمح الى خدمة من تحب وتؤثر اخضاع نفسها واحناء كبريائها أمام الحب

فالبرنس (نيكيل) المتشبع بالمبادىء العصرية يعتقد ان لا حق له فى ان يمنع امرأته عن حب رجل آخر مالت اليه ميلا قويا ، وان امرأته مساوية له فى الحرية ، وان تشبثه بها فى مثل هذه الحال يؤدى الى تضحيتها على مذبح أنانيته

ولكن الزوجة «بيالا» تعتبر اسراف زوجها فى منحها هذه الحرية دليلا على نقص فى حبه لها فتتبرم به ويروعها منه كمال أخلاقه وهدوء طبعه واتساع مدى عقله وحكمته ، فتميل الى شاب وطنى ملتهب العاطفة والاحساس يدعى « سانديب » . ولما ترى ان زوجها لم يحاول صد هذا الميل ولم يعتبرها متاعا له يجب أن يدافع عنه ، بل تركها مطلقة الحرية فى التصرف والاختيار ، يزداد تبرمها به فتهجره وتتبع عشيقها ممزقة النفس والقلب ، لان زوجها لم يعرف كيف يحبها ويختصها لنفسه فقط ، ولم يفهم انها ليست مخلوقا يطلب الحرية ، بل مجرد انثى تنشد التفانى فى خدمة رجل واحد

وإذن فنظرة الهند الجديدة الى المرأة والحب قد تبدلت وتطورت، بل لقد جاوزت عند بعض الطبقات المثقفة حد المعقول . ومع ذلك فالمرأة الهندية الحديثة ـ كما يصورها لنا تاغور ماتزال فى صميم أخلاقها امرأة شرقية تحرص على محبة زوجها لها واستمساكه بها ولا تطمح إلا الى خدمة بيته وخدمة أولاده على الرغم من الحرية التى يريد الرجل المثقف أن يمتعها بها

والدليل على ذلك أن «بيالا» ندمت كل الندم على تركها زوجها وحاولت التكفير عن خطيئتها وملء نفسها الأمل بأن روحها لابد أن تتناسخ بعد أجيال وأجيال وتعود آخر الأمر الى مقرها الأول بجوار زوجها الذى لم تطلب فى الواقع رجلا سواه !...

فى الصين

سهول تتخللها المقابر ، ومعابد حمراء مذهبة ، وسطوح وسقوف ملتوية على شكل قرون ، ومدن قذرة تتصاعد منها روائح كريهة ، ومتاجر مزدانة بالمصابيح ، ورجال صفر الوجوه لهم أنوف منسحقة وعيون متغضنة ورؤوس محلوقة وجدائل شعر مرسلة فوق أثواب رسمت عليها صورة تنين تحف به الأزهار ، ونساء متبرجات غمرت

المساحيق وجوههن ، وحجبت رؤوسهن تلافيف سوداء مثبتة بالدبابيس والورود ، يرتدين أثوابا قصيرة فوق سراويل طويلة ويمشين على أطراف أقدامهن مهرولات متعثرات

هذه هى الصورة التقليدية الشائعة التى نتمثلها عند ما نفكر فى الصين

وتقوم الى جانب هذه الصورة ألوان متعددة أخرى أهمها الموسيقى الصينية التى تشبه مواء الهررة أصابها الهذيان ، وطوائف الاغنياء العاطلين الذين يلهون برفقة البغايا فى قوارب مزينة بالورود ، وجماعات الاطفال المشردين الذين يتركون في العراء مع الخنازير التائهة

تلك كانت صورة الصين فيما مضى . أما اليوم فقد تبدلت وأصبح يراها السياح المعاصرون فى شكل جديد

أصبحت اليوم جمهورية مؤلفة من عناصر مختلفة الالوان ، ميالة بعض الشىء الى المبادىء الاشتراكية المتطرفة ، تتمثل فى جماهير الطلبة المتقدين حماسة والذين تلقوا العلم الاوربى الحديث واحتفظوا فى الوقت نفسه بكبريائهم الاسيوية وعملوا على تحرير نسائهم اللواتى يتبعن أزياء باريس ويحملن الشهادات العالية وينزعن كرفاقهن الى ترويج المبادىء الاشتراكية

والواقع أن الصين القديمة ما تزال حية فى كثير من المناطق وأن البلاد الصينية مجموعة متناقضات وأن الصورتين اللتين أشرنا اليهما صادقتان ومتفقتان مع حقيقة الحياة فى تلك البلاد

وإذن فما هو اسلوب الصينيين فى الحب وما سر أرواحهم وقلوبهم وحواسهم ؟

لو عدنا الى ما قاله عنهم العالم الجغرافى اليزيه ريكلو والعالم أونزيم ريكلو ، لأدركنا أن شعور الصينيين من نحو نسائهم هو شعور أبعد ما يكون عن الحنان والعطف

ان العلامة الرمزية التى تشير الى (المرأة) فى الخط الصينى تمثلها لنا باعتبار انها « مفتاح النقائص والرذائل »

وأما العلامة التى تشير الى (الرجل) فتمثله باعتبار أنه مفتاح العواطف والميول السخية الطيبة

وهناك مثل صينى يقول : « ليس هو فم الثعبان الازرق الذى ينفث السم بل لسان المرأة ! »

ولقد لخصت الشاعرة الصينية (بانهويبان) التى عاشت فى القرن الأول للميلاد واجبات المرأة فى كتابها (المواد السبع) الذى وردت فيه هذه العبارة : « لا يجب أن تكون الزوجة غير ظل وصدى ! »

وأشارت هذه الشاعرة الى تقاليد بلادها فذكرت أن العرف كان يقضى بأن يقدم الصينيون لكل رجل وضعت امرأته بنتا ، بعض قطع من القرميد ، دليلا على نكبته واشارة الى أن القرميد كالنساء يسحق بالاقدام ويستهدف على الدوام لعبث الريح

فالفتاة الصينية كانت والحالة هذه منكودة الحظ . فاذا شعرت بوحدتها ولم يكن لها اخوات عديدات ، واذا رضيت عائلتها بالاحتفاظ بها وتربيتها والعناية بهذا المخلوق الذى لافائدة منه للاسرة والذى لايستطيع أن يقدم القرابين لآلهة الاسلاف ، بدأ شقاؤها المروع من سن الطفولة

كانوا يشوهون قدميها اعتقاداً منهم أن تشويه أقدام الفتيات يساعدهن فيا بعد على الحصول على زوج ، وان الاقدام المشوهة هى موطن الفتنة فى النساء ومركز الاغراء ، وأن المرأة الشريفة العفيفة المهذبة لايجب أن تكشف عن قدميها إلا أمام زوجها وسيدها

وهكذا كانت تصبح المرأة الصينية كسيحة شبه عرجاء مشوهة الساقين مترهلة الفخذين لاتتحرك بل تثب ولا تمشى بل تتمايل . وكان الرجل يجد فى هذا المنظر جمالا وسحراً

وكانت بعد إذ تتزوج تصبح متاع زوجها الخاص . واما هو فكان له الحق فى عدد آخر من الزوجات وفى أى عدد كان من المحظيات والسراري . وكان من واجب زوجته أن تحسن وفادتهن وتعاملهن كاخوات لها وتتلطف معهن جهد الطاقة

والعجيب أن مجرد اصابة الزوجة بمرض ، أو ادمانها على الثرثرة ، أو انصراف قلب الرجل عنها ، كان يكفى لنبذها وطلاقها دون التجاء الى محكمة أو اضطرار الى دفع تعويض . بل لقد كان من حق الزوج أن يبيع امرأته اذا شاء

ولم يكن للمرأة المسكينة حيال هذا الاضطهاد إلا أن تهرع الى أحد الهيا كل حيث تعلق صورة من ورق تمثل زوجها ، عاليه سافله ، ثم تبتهل الى الآلهة الرحيمة أن تبدل قلب زوجها الذى لم يعد يخفق فى موضعه

هذا هو حظ الصينية كما رسمه علماء أوربا

ولكن هناك عالما صينيا يدعى (كو هونج منج) تلقى الثقافة الاوربية وظل مع ذلك

صينيا صميا . هذا العالم وضع كتابا طريفا عن (عقلية الشعب الصينى) ذهب فيه مذاهب أخرى وحاول أن يبسط لنا حقيقة الحياة الفكرية والخلقية عند الصينيين

يقول هذا العالم ان النظام الذى وضعه كونفوشيوس لا يجب أن نعتبره دينا وانه فى الواقع مجموعة أنظمة تنهض على فكرة الشرف وتتجسم فى شخصية الرجل الشريف وتتمثل فى التمتع بحق الملكية وفى تهذيب النفس وتنقية الذوق وصقل الطبع ومعرفة آداب المعاملة وآداب المجتمع

ومن أسرار هـذا النظام سر الحياة الزوجية التي يجب أن تقوم على مبدأ التوطد يكون واستمرار العائلة

ولقد نادى كونفوشيوس بتقديس العائلة ثم توسع ونادى بتقديس الدولة أيضا ثم أنشأ سراً جديداً وواجبا عاما هو الولاء التام لشخص الامبراطور

فبموجب هذه التعاليم ينبغى للزوجة أن تكون مخلصة لزوجها وينبغى للزوج أن يكون مخلصا للامبراطور

على هاتين القاعدتين الكبيرتين ينهض شرف المرأة والرجل وتقدم الحياة الخلقية فى الصين

فلكى تحيا المرأة الصينية حياة نبيلة يجب أن تتطلع الى مثل أعلى يشبه ذلك المثل الذى كن قبلة الانظار عند العبرانيين ، يجب أن تكون أما ولوداً وزوجا صالحة وربة بيت كاملة وحارسة أمينة على مؤونة الأسرة وامرأة تحسن طهى الطعام وتعرف كيف تكون سيدة المطبخ

وأما فضائلها فينبغى أن تكون التواضع والبشاشة والاحسان والمثابرة والنظام والكمال فى السلوك والاخلاق

فاذا كانت فتاة فيجب أن تعيش لوالدها واذا كانت زوجة فلزوجها واذا كانت أرملة فلأولادها ، وهذا أصلح لها وللمجتمع فى نظر الصينيين من أن تكون مفكرة مصلحة أو زعيمة جمعية حديثة تنادى بوجوب منع تشويه أقدام النساء ...

ويقول العالم (كو — هونج — منج) فوق ما تقدم : « ان المرأة الصينية المثلى هى التى لا تملك لنفسها شيئا ، وهى التى تتجرد من الأنانية فى سبيل زوجها وأسرتها . ومتى تجردت هذه المرأة من الأنانية لم تعد تحفل بالجوارى أو الخادمات اللواتى يرغب فيهن الزوج ويطلبهن ساعة الفراغ من عناء العمل . بل هى تقدمهن اليه عن طيبة خاطر كما

تقدم الزوجة الأوربية لزوجها مقعداً مريحاً أو قدحا من لبن الماعز

« وما دامت حياة الصينيين المخلصين جميعاً وفى طليعتهم الأمبراطور يجب أن تكون حياة تضحية ، فالتضحية التى ينبغى أن تقوم بها المرأة الصينية هى أن تتجرد من الأنانية وتعيش للرجل الذى تدعوه زوجها . أما تضحية الزوج فيجب أن تتمثل فى توفير أسباب الحياة لامرأته وحمايتها وحماية النساء اللواتى أدخلهن بيته وحماية أبنائه من هؤلاء النساء »

ويرى ذلك العالم ان هناك فارقا عظيما بين الرجل الأوربى الذى يلتقط امرأة من الطريق ثم يمتلكها ثم يلفظها وبين الرجل الصيني الغنى الذى يجمع فى بيته عدداً من النساء ولكنه يبقى عليهن ما استطاع

وقد يكون هذا الصينى رجلا أنانيا ولكن أنانيته لا تقاس فى نظر العلامة (كو ـ هونج ـ منج) بنذالة الأوربى

هذه أهم الافكار والمبادىء التى أوردها رجل صينى مثقف عن عقلية ونفسية شعبه

ومع ذلك فليس فى مقدور الاجانب أن يفهموا حقيقة الشخصية الصينية إلا متى فهموا حقيقة الولاء وحقيقة معنىالتجرد من عاطفة الأنانية

ولكن ماذا يفعل الصينيون بالحب وهل له وجود عندهم وهل يمكن ان يكون له وجود فى نظام يخول الزوج حق امتلاك ماشاء من المحظيات ؟ لم لا ؟ . . .

ان الزوج الصيني الشريف يحب زوجته على طريقته . وهو اذا كان لا يقضى حياته منصرفا اليها وحدها ، فهو يحترمها على الدوام ويتجنب ما استطاع خدش احساسها ، بل هو فى الغالب لا يجبرها على قبول عشيقته أو جاريته فى بيتها . غير ان تجرد الزوجة من الانانية يجعلها من تلقاء نفسها قليلة الشعور بالألم حيال امرأة غريبة تقاسمها زوجها ولا تستطيع أن تسلبها من قلبه شيئا ...

ومما يجدر بالذكر أن دليل حب الزوج لامرأته فى نظر الصينيين هو قدرته على حمايتها ضد ما فى نفسه من نزعة الى الاكثار من المحظيات . لذلك هو يحاول جهده أن يطيب خاطرها ويعاملها أحسن معاملة ولا يسرف فى اتخاذ المحظيات متى أحبها . ثم يبذل قصاراه لاقرار السكينة بين محظياته ونشر روح الود والتفاهم والصفاء بينهن وبين امرأته. وهكذا تصبح الأسرة الصينية كما يقول كونفوشيوس فردوساً والمرأة الصينية الرقيقة العفيفة الكريمة الاخلاق حارسة ذلك الفردوس ! ...

فى اليابان

كان ينشأ الرجل فى اليابان القديمة على تقاليـد الفروسية ومبادىء (الساموراى) وتمجيد روح البطولة . وكذلك كانت تنشأ المرأة

وكانت فضائل المرأة اليابانية الأصيلة التى لم تفسدها مؤثرات الغرب هى : الاحتمال والصبر وانكار الذات والطاعة المطلقة للابوين ثم للزوج ووالدة الزوج

ولقد اشتهرت اليابانية إذ ذاك بقدرتها على ضبط نفسها وكبح جماح أعصابها واعتيادها بحكم التربية إخفاء عواطفها تحت ابتسامة هادئة لا تتبدل

كانت مخلوقا صابراً بلا تضجر ، شجاعا بلا تكلف . وكانت قوانين الساموراى تعلمها ان المرأة وضيعة كالأرض وأن الرجل عظيم كالسماء

ولم تكن حياتها الزوجية غير خضوع مطرد لزوجها واستسلام متواصل واخلاص تام لمصالح العائلة

وكانت اذا تبرمت بها حماتها وغضبت عليها أقصاها الزوج عن بيته وانفصل عنها

لم يكن فى هذا الزواج أى أثر من الحب . ومع ذلك فقد كان يحدث أحيانا أن يتولد بين الزوجين ضرب من الشعور يوقظ فى قلب الرجل من نحو امرأته احساساً عميقاً . ولـكن الرجل كان يعتقد ان الاحساس الغرامى العميق نوع من الضعف غير جدير به وان هذه العاطفة هى ميل وضيع يتفق وضعف المرأة وحقارة مركزها

فالرجل كان يكتفى بأن يوحى الحب الى المرأة دون أن يشعر به هو نفسه

كان يترفع عن الحب ولا يتحمل مسئولياته

فاذا اتفق مثلا أن وقعت امرأة تحت تأثير رجل وأسلمته نفسها قالوا انها هى الفاسدة وهى التى أغرته وهى التى يجب أن تتحمل نتائج عملها

ولما كان يحدث ـ على النقيض ـ أن يرغب رجل فى امرأة ثم يراها تعرض عنه ويشعر بعجزه عن الظفر بها ، كان هذا الرجل يعتبر أنه أهين اهانة صارخة فيغضب ويثور وتزايله تلك الرقة المشهور بها أدب اليابانيين

ولقد مثلت فى باريس رواية عصرية يابانية شاهد فيها الباريسيون شابا يابانيا من خريجى الجامعات يلوك سيجارته بين أسنانه حنقا وغيظا ويبصق دخانها فى وجه فتاة رفضت أن تكون زوجة له

وكان الباريسيون يضحكون لأنهم لم يفهموا سر الخلق اليابانى وعظم تقدير اليابانيين لكرامة الرجولة

وفى ذلك يقول الكاتب الفرنسى اندريه بلسور فى كتابه (المجتمع اليابانى) : « لما كنت فى اليابان قص على بعضهم حكاية رجل من حفدة الساموراى ، أعرضت عنه ابنة أحد القضاة ورفضت الاقتران به ، فما كان منه الا أن انتزع سيفه أمامها وبتر به بعض أعضاء جسمه لفرط شعوره بالاهانة التى وجهت الى رجولته من شخص ضعيف

« ولما التقيت فيما بعد ببعض اليابانيين العائدين من أوربا وحدثتهم عن ذلك الانتحار قالوا لى انهم شاهدوا هم أيضا حوادث كثيرة من هذا النوع »

ومع ذلك فهناك حوادث انتحار منشؤها الحب يسميها اليابانيون «موت القلب» أو « الموت بسبب العاطفة »

وهذه الحوادث تقع غالباً فى طبقة البغايا المعروفات باسم «جورو» أو «جيشا» وقد تقع أحيانا فى طبقة أرقى من هذه

ويجب أن نلاحظ أن البغى اليابانية التى تبيع محاسنها للرجال لا تتخلى عن جميع الاخلاق والعادات التى تميز عنصرها بل تحتفظ بمظاهر الأدب فى حركاتها وسكناتها وأحاديثها ، ومن الممكن أن تشعر باحساسات رقيقة وعواطف عميقة

على أن اليابانيين اذا كانوا لا يعلقون على الحب أهميــة كبرى فهم فى نفس الوقت لا يستنكرون المهنة الشائنة التى تتعارض والحب وتطعنه فى الصميم

والدليل على ذلك أن البغى اليابانية أو « الجيشا » تهيأ طويلا للقيام بمهمتها وتدرب عليها منذ نعومة أظفارها فتتعلم مختلف آداب اللياقة وشتى ضروب الموسيقى والرقص والشعر والتصوير كما كانت تفعل البغى الاغريقية

والواقع أن هذه المرأة اليابانية التى تبيع محاسنها للرجال هى أكثر حرية عندهم من الزوجة المشروعة وأكثر سعادة ، فانها تختار عشاقها بنفسها ومن المحال أن يزجرها أو ينتهرها أو يسىء معاملتها واحد منهم

وقد يحــدث فى اليابان أن تتقدم فتيات لاحتراف الدعارة لانقاذ آبائهن من وطأة البؤس . وقد عرف الكاتب الشهير (لافكاديو هرن) فتاة من هؤلاء تدعى (كان) مارست تلك المهنة وهى فى السابعة عشرة من عمرها وضحت بنفسها فى سبيل رفاهية أبويها فعشقها نجل أحد الاطباء ولكن والده ثار عليه ولعنه وحرمه من ميراثه وأوصى بماله

لشاب غريب تبناه . فما كان من العاشق إلا ان استسلم لغرامه وأنفق على معشوقته كل ما يملك ، ولما نفد ماله ولم يستطع اطلاق العنان لحبه اتفق مع عشيقته على أن ينتحرا سويا ، فأجابته الفتاة الى سؤله وتجرعت السم مثله ، وقضت نحبها بين ذراعيه

هذه الحادثة قد تقع في أى بلد من البلدان ولكنها فى اليابان تتخذ لونا خاصا وطابعا مستقلا يتمثل فى العواطف التى أحست بها الفتاة قبل انتحارها ، فى اشفاقها على أبويها ، في خوفها من أن يعصف بهما البؤس بعد موتها ، فى اقدامها على الموت وعدم ترددها لحظة واحدة ، فى اعتقادها الراسخ بانها عاشت مع حبيبها فى عالم سبق هـذا العالم وانه مقدر عليها ان تعيش معه فى العالم المقبل أى فى الـ (مايدو) موطن الأرواح الخالدة

وهكذا ماتت (كان) شهيدة حبها ولكن الطبيب والد عشيقها رفض أن تدفن بجوار ولده لحرمها نعمة الراحة التى لا يجـدها العشاق ـ فى رأى اليابانيين ـ إلا اذا دفنوا فى ضريح واحد جنبا الى جنب

أمثال هـذه الحوادث فى اليابان كثير . والعشاق اليابانيون المنكوبون فى غرامهم يؤمنون أشد الايمان بأن عذاباتهم الحاضرة هى عقاب لهم عن ذنوب منسية اقترفوها فى العالم السابق ، ولذا تراهم يحتملون آلامهم بصبر عجيب وارادة فى التفكير صارمة ، وأمل دائم بالالتقاء فى العالم المقبل

وإذن فالحب عندهم هو التقاء شخصين تعارفا من قبـل وتفاهما فى عالم آخر ، هو عاطفة ليس فى وسع الانسان مقاومتها لان القدر هيأها فيما مضى وأبى إلا أن تكون . فكأن الحب عند اليابانيين هو التذكرى أو هو لقاء رائع بعد فراق طويل !

الحب في العصر الحديث

ان الهند والصين واليابان وتركيا ، تأثرت جميعها بالحضارة الغربية . فهل بدل ذلك من روحها الحقيقية التى تتمثل فى تقاليدها القديمة وتظهر فى عاطفة الحب ؟

أم ان أسلوب عواطفها هو الذى تغير فقط ؟

الواقع أن الغرب يدرس العواطف عند الشرقيين من طريق آدابهم وفنونهم وكذلك الشرق .ولكن الغرب كثيراً مايسىء تفسير الآداب والفنون الشرقية ، والشرق هو الآخر كثيراً مايسىء فهم آداب الغرب وفنونه

لذلك تصعب علينا الاجابة بصفة حاسمة على السؤال المتقدم . ولكن هناك أسئلة أخرى من الأهمية بمكان وهى : كيف ينظر الشاب الصينى مثلا أو اليابانى الى الفتاة الصينية أو اليابانية العصرية المتحررة ؟ وما هى حقيقة العاطفة التى توحى بها تلك الفتاة الى هذا الشاب ؟ وهل ينظر ذلك الشاب الشرقى العصرى الى تلك الفتاة الشرقية العصرية نظرته الى زميلة أو صديقة أم الى زوجة تصلح شريكة له فى الحياة ؟ ..

يزعم البعض أن كثيراً من الطلبة الصينيين يؤثرون على الفتيات العصريات المتحررات فتيات يعشن وفق أنظمة الماضى وينشأن على الحياة لأزواجهن فقط لا لأنفسهن

وقد يكون هذا صحيحا فى الصين وفى غيرها من بلاد الشرق . ولكن التفاهم بين الشبان المتحررين والفتيات المتحررات لا بد منه كى تتحقق النهضة المنشودة فى الشرق

غير أن هذا التفاهم لا يمكن أن يتم بواسطة سلالة واحدة ، وينبغى أن تتعاقب عدة سلالات قبل أن تتحرر شعوب الشرق من مواطن الضعف والتأخر فى تقاليدها . على أنها متجهة بخطى حثيثة فى هذا السبيل . وقد بدأت باصطناع أزياء الغرب ثم جلبت اليها علومه ومخترعاته وأسلحته . ولكن حياة الغرب العاطفية والنفسانية ماتزال غامضة فى عيون معظم الشرقيين ، فمتى قطعوا شوطاً آخر فى ميدان التحرر استطاعوا أن يتبينوا حقيقة تلك الحياة فاما نبذوها واما اصطنعوها جملة واما حاولوا التوفيق بينها وبين الصالح من تقاليدهم

ومع ذلك ففى الشرق بلاد أدركت آخر الأمر قيمة المرأة فى الحياة العامة ، وأخذت بمبادىء الغرب فيما يتعلق بوجوب تهذيبها وتحريرها ، فشاهدنا حركة الاصلاح والتحرير النسوى فى تركيا وسمعنا فى مصر صرخات قاسم امين ، وابصرنا طوائف النسوة المتحررات تمرح فى بعض بلدان الشرق

ولكن هل وجدت المرأة الشرقية الحرة سعادتها التامة فى هذه الحرية ؟

وهل أصبحت كالأوربية تستطيع أن تختار الزوج الذى تريد وأن تشيد صرح عائلتها على أساس الاختيار الحر أى على قاعدة الحب كما تفهمه الاوربية ؟

ليس شك فى أن الحرية عبء ثقيل ومسؤولية كبيرة ونعمة تكلف ثمنا غاليا . فاذا شاءت المرأة الشرقية أن تنعم بحريتها وتقنع الرجال بضرورتها للوطن ولها ، فعليها أن تحسن استخدامها ولا تجعل منها سبيلا للتمتع واللهو بل طريقا للتحضر والتثقف وبناء العائلة على أساس ثابت وطيد

* * *

هذا فيما يختص بالتطور الذى تم فى الشرق والذى ما يزال آخذاً مجراه الطبيعى .
أما فى أوربا الغربية فقد تبدلت العادات والاخلاق تبدلا ظاهراً منذ الحرب الكبرى

سادت الأخلاق الامريكية وعادات شعوب أوربا الشمالية سيادة تكاد تكون تامة بعد الحرب وكانت الفتاة حرة فى الولايات المتحدة وفى بلاد سكندناوه وفى انجلترا .
وكانت المرأة تشترك فى العمل الاجتماعي قبل أن يعترف لها بحق الاقتراع

ولقد اقترنت حرية النساء عند الشعوب البروتستانتية بشىء من بقايا المبادىء الطهرية المحافظة . فكان الطلاق سهلا ولكن العلاقات غير المشروعة كانت مستنكرة كل الاستنكار

هذه الأخلاق انتشرت فى أوربا عقب الحرب الكبرى وضاعفت شعور المرأة بحقوقها واشتد هذا الشعور لدى الأوربية حين أبصرت الأمريكية الموسرة تتمتع بأوفر قسط من الحرية وتبسط سلطانها على الرجال وتعيش كملكة عليهم وهم يقضون معظم أوقاتهم فى العمل الشاق لجمع المال تهافتا عليها وابتغاء مرضاتها

وتشرعت الأوربيات – ولا سيما فى العواصم الكبرى – فى الاقتداء بالأمريكيات الموسرات فطغت على الأخلاق موجة من اللذة المقترن بالاستهتار والاعتداد بالنفس وفوضى الحرية . فابتذلت عاطفة الحب وفقدت ألوانها الشعرية واستحالت الى مجرد نزوة تنقضى بانقضاء عواملها البدنية ولا تخلف فى النفس أية رغبة روحية فى الثبات والاستمرار

دفعت أهوال الحرب بالاوربيين الى طلب اللذة والنسيان فاسرف رجالهم فى العبث وأسرفت نساؤهم فى التطلع الى حرية التمتع وإلى محاولة الاقتداء بطبقة معينة من الامريكيات اللواتى لا يمثلن المرأة الامريكية الحقيقية المشهورة بشجاعتها واستقامة خلقهـا وسخاء نفسها ونظرتها المتفائلة الى الحياة

وتبدل كل شىء فى أوربا على مهـل . ففي انجلترا اختفت صورة تلك المرأة الصبية الشقراء المحتشمة الخجول التى تحب الأطفال والجياد والـكلاب وتحسن الترتيـل فى الـكنائس يوم الأحد والتى رسمها لنا القصصيون الانجليز فى القرن التاسع عشر

اختفت تلك المرأة التى كانت تمثل عدداً كبيراً من بنات جنسها . واختفت صورة المرأة انجليزية أخرى ملتهبة العواطف مضطرمة الميول قوية الارادة لا تخشى الموت فى سبيل الحب ولا تحفل بالتقاليد اذا ما اعترضت ثورة قلبها وإحساسها

ولقـد أبدع في رسم المرأة الأولى الروائى الـكبير شارلز ديكنز . وأجادت رسم الثانية القصصية المشهورة شرلوت برونتى وأختها أميلى

ولـكن الشخصية الأولى هى التى كانت سائدة فى انجلترا فى عهد الملـكة فيكتوريا ، حيث كان الحب ناضراً رقيقا صبيانى النزعة والروح ، وحيث كان يسمح للخطيبين بالتعارف الطويل وتبادل الغرام سنة أو سنتين قبل الزواج ، وحيث كان محرما على الروائيين أن يرسموا أطوار الحب الشهوى ونزعات الهوى المحرم وجرائم الزنا وفضائح البيوت

هذا كله تبدل فجأة عقب الحرب الـكبرى

ظهر فى انجلترا أدب واقعي جديد لا يتهيب رسم الانفعالات النفسية والجثمانية ولا ينظر الى الحب كعاطفة روحية مجردة بل يصوره تصويراً دقيقا ويحلل خفاياه ويبرز نقائصه ويرشد الى جوانب العظمة وجوانب الانحطاط والقذارة فيه

ساد حكم العقل وتغلغلت النظريات العلمية في الأدب الانجليزى ، وأصبحت المرأة المثقفة المتحررة تعرف أسرار الحب ولماذا تحب وكيف تحب وما هى خير الوسائل لجعل الحب عاطفة متزنة لا تطغى على العقل ولا تلتهم حياة الفرد ولا تحول بينه وبين تأدية واجباته الأخرى نحو نفسه ونحو المجتمع

هذا ما حدث فى انجلترا . أما فى المانيا فقد انتشرت نظريات العلامة فرويد قبـل مجيء هتلر وسيطرت على الأدب الالمانى فجردت الحب من اطاره الخيالى وخلعت عنه ظلاله الشعرية وكشفت للشباب عن أصوله الراسخة فى أعماق الجسد

ولكن شدة إحساس الألمان بالهزيمة عقب الحرب دفعت بهم الى الاسراف المرضى فى تصوير الأعراض الجنسية الشاذة تفكهة بها وتلهيا بغرائبها ، فاستحال الحب فى نظرهم الى شهوة مطلقة ورذائل شائنة تهالكوا عليها يائسين مستسلمين ابتغاء التعزية والنسيان

وهكذا اختفت من أدبهم صور الحب الشعري الحالم الرقيق الذى تمثل فيما مضى فى شخصيات فرتر وشرلوت وجرتش وبيتينا . ثم جاءهتلر وسرعان ما بشر أنصاره بمبادىء القوة والصحة وسلامة القلب والبدن وضرورة الاستمساك بالفضيلة والعفة حرصاً على مصلحة العائلة وكيان الدولة ومستقبل الوطن

وعندئذ تبدل الحب مرة أخرى واتخذ شكل واجب وطنى وانحصر فى دائرة الزواج الذى تشجعه الحكومة وتكافىء عليه

فأصبحت الفتاة الالمانية ترسل جدائل شعرها وتكره المساحيق وتنشد الزوج القوى والنسل القوى وحياة البيت والسهر على النوع وحسن تأدية وظيفة الانثى . ولم تعد تتطلع الى الحرية أو الى حق العمل خارج البيت أو الى التمتع بغرام لا ينتهى الى الزواج والأمومة

ومثل هذا الانقلاب حدث فى ايطاليا الفاشستية . فكان أن ارتد جزء من أوربا وعاد الى النظام القديم والى اعتبار المرأة زوجا واماً فحسب بعد أن كان قد اطلق لها الحرية فى الاقتداء بالرجل وفى العمل مثله وفى القدرة على كسب العيش بدون معونته وفى حق التمتع بالحياة اسوة به

ولكن هل يدوم هذا الانقلاب وهل تستقر عناصره وتتوطد دعائمه وتنزل بموجبه المرأة عن حرياتها القديمة مختارة راضية ؟

الواقع أننا نعيش فى عصر مملوء بالمفاجآت وليس فى وسعنا التكهن بما سوف يتمخض عنه المستقبل . ولكن الحقيقة الماثلة أمام ابصارنا هى ان المرأة — فى الأمم الديموقراطية وهى أرقى الأمم وأعرقها حضارة — ما تزال حرة فى عواطفها وفى التصرف بحياتها وفى التطلع الى حق المساواة بالرجل وفى القيام بواجباتها الاجتماعية والسياسية خارج دائرة العائلة ودائرة الزواج

ومما لا يقبل الريب ان المرأة الحرة اثبتت كفاءتها فى الحياة العامة بجوار الرجل وفى مناطق نفوذه وفى الاعمال التى كانت وقفا عليه وحده . ولذلك يرتاب المفكرون فى استعدادها للنزول عن حرياتها وحقوقها التى فازت بها بعد جهاد شاق طويل

وحتى من خير ما نختم به هذا الحديث هو ان نحذر المرآة من الاسراف فى الحرية والافراط فى الاقتداء بالرجل ، إذ هى كلما بالغت فى التشبه به ، نفرته منها واقصته عنها ، وأضعفت حبه لها ، ونسيت أن الحب لاينشأ فى قلب الرجل إلا من طريق اعجابه بفضائل الأنوثة أى الضعف والرقة والعذوبة والحنان والعطف والحياء والعفة

فهذه الفضائل التى لاتتفق مع الاسراف فى الحرية ، هى التى تلهب مخيلة الرجل وهى التى تنعش نفسه وقلبه ، وهى التى تدفع به الى الحب الصادق الوفى الذى لا غنى للمرأة عنه والذى سيظل حيا خالداً ما بقى العالم وما بقيت فتنة الانثى وسحر الجمال !

الحب عند العرب

هل وجد الحب بين أبناء الصحراء ؟ هل وجد الحب فى تلك الصحراء المحلة بين الشمس المتوهجة والأرض القاحلة وقسوة الحياة وضرب أكباد الابل ، بين الوهاد والنجود ورحلة الصيف والشتاء ، والعصبية الجاهلية وعزة كل قبيل بقبيله وكل انسان بسيفه ورمحه ، بين الحروب المتواصلة ومطالب العيش القاسية وجفاء الطبيعة بما يشبه القحط ؟

نعم . لقد وجد الحب فى تلك الصحراء ، عند نبع الماء وفى منعطف الكثيب وظل الواحة والنخيل وعلى العشب الأخضر بين حداء الرعاة وغنائهم وتحت النجوم البعيدة اللامعة وبين الرمال الصفراء المترامية كأمواج المحيط

هناك بين الخيام والمضارب والطنب كانت تقع العين على العين ويعلق القلب بالقلب ويلتقى كل خليل بخليلته على الشرف والعفة ولو بعد الرقيب

فى الجاهليـة

كان عرب الجاهليـة فريقين : فريق الأشراف والسادة من رؤوس القبائل ذوى الشوكة والمال والمروسية والاتباع ، وهؤلاء كان الحب بينهم كما هو طبيعى أن يكون بين قوم مترفعين لهم من متاع الحياة والقـدرة عليها ما يكون لذوى المـال والسطوة والفراغ والجاه العريض

والذين يحكمون على حياة العرب فى الجاهلية بانها كانت مقسمة بين الخمر والنساء والحرب ، يصدرون هـذا الحكم لما يجدون من هـذه الأشياء وحدها فى شعر امرىء القيس ومعلقته وفى بقية المعلقات ، ومن وضوح هذه النواحى الثلاث وحدها وبروزها فى شعرهم كأنها قوام حياتهم كلها . ولكن الفريق الآخر أى سواد العرب كانت فى حياتهم أشياء غير ـ . امرىء القيس وكان فيها حب غير حب امرىء القيس واستهتاره وتبذله كان الشرف عنـدهم فوق الحب والذود عن العرض فوق الحيـاة . ونحن نرى فيما

روى عن حياة الجاهلية وصدر الاسلام عجبا من الأقاصيص عن الحب والشرف بين بنات العرب وفتيانها ، حتى لقد كان بعضهم يذبل من فرط الهوى ويموت ثم هو لا يبوح باسم من يهوى خشية أن يصيبه أذى من أهله بل مخافة أن يذكر اسمه بسوء

كان الحب عند العرب صادقا كفجر الصحراء طاهراً كنقطة الندى يقظا حادراً كدليل القافلة صامتا كتوما كغار الجبل راسخا قويا كالطود عميقا كنبع الماء فى الصخر الآثم !

وكانت قيود الحياة الاجتماعية شديدة القسوة . فكانوا اذا عرفوا أن واحداً منهم عرض لذكر فتاة فى حديثه أو شعره ، حرموا عليه زواجها ورؤيتها أبد الدهر ولو كانت من ذوى قرباه ، خيفة أن يشهر بالفتاة ويقال انه أحبها قبل زواجها وكانت بينهما مظنة ريب

لهذا السبب كان الحب عذريا كتوما . وكان محنة للنفس والروح يشقى بها المحب ويموت دون الظفر بمن يهوى . ولكن هذا الشقاء كان عذبا شهيا الى نفوس عشاق العرب ، لانهم كانوا يعشقون الشرف أكثر مما يعشقون أحبابهم . وكان شباب العرب يفاخر بعضهم بعضا بهذا اللون من العشق حتى استعلى شباب قريش يوما على بقية القبائل واشتهروا بأنهم أعشق العرب ، وحتى فاخر بنو عذرة بطهارة عشقهم فنسب الهوى العذرى الى قبيلتهم وكانوا كما قال عروة بن الزبير عن نفسه : «انى لأعشق الشرف كما تعشق المرأة الحسناء!» . وكانت نساؤهم تقول كما قالت ليلى الاخيلية فى شعرها المشهور:

وذى حاجة قلنا له لا تبح بها　　فليس اليها ما حييت سبيل
لنا صاحب لا ينبغى ان نخونه　　وأنت لأخرى صاحب وخليل

ولقد قامت بين العرب حروب ومواقع بسبب هذا الشرف وقداسته . قامت بينهم حرب الفجار المشهورة لان شبابا من قريش وبنى كنانة كانوا ذوى غرام فشاهدوا امرأة جميلة من بنى عامر محجبة الوجه تحدث شابا فسألوها أن تسفر

بل هذا امرؤ القيس نفسه طرده أبوه لانه عشق ابنة عمه عنيزة وكان لها معه يوم ذكره فى معلقته غير حافل

فى الاسلام

بقى العرب يحبون ذلك الحب العذرى الطاهر فتحافظ الفتاة ويحافظ فتاها على



الحب يكسر قوسه

للرسام شانترون



يقظة القلب

للرسام بوجيرو



احب وتربية شعر

[illegible]



ضابطة فى البوليس النسائى الامريكي (في أعلى) وعافظة ميناء شوثمبتون (في أسفل)

هل لامثال هؤلاء النساء العصريات من اوقات
الفراغ ما يسمح للحب بالنمو فى انفسهن ؟

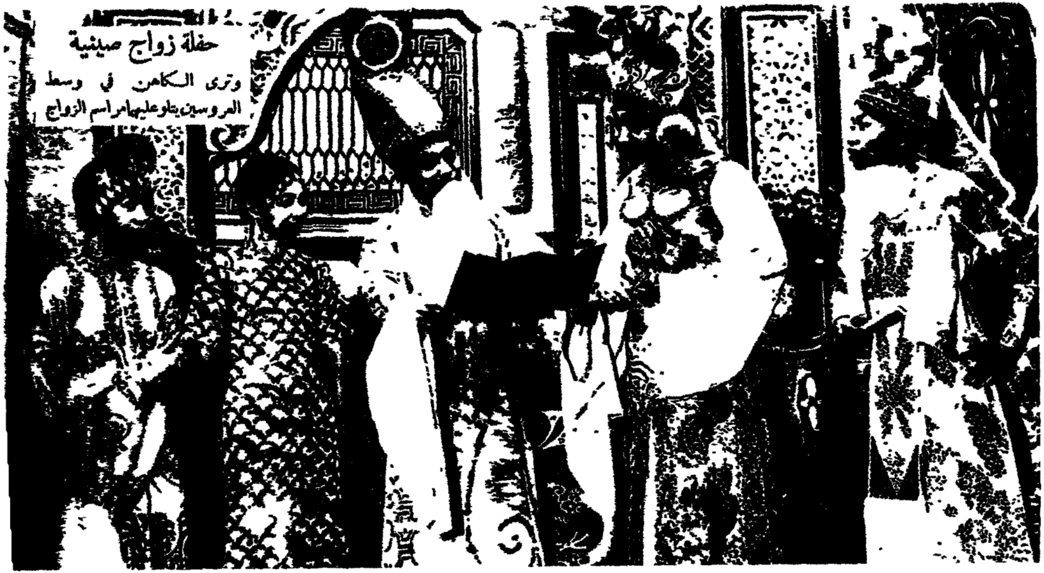




نساء امريكيات يتعلمن اطلاق الرصاص على يد أحد الضباط لوقاية منازلهن من غارات اللصوص ..



فتيات الجيشا اليابانيات
يرقصن رقصة تقليدية



حفلة زواج صينية

وترى الكاهن في وسط العروسين يتلو عليهما مراسم الزواج



السيدة فاطمة رشدى

فى دور ليلى



الاستاذ احمد علام

فى دور مجنون ليلى



زواج حديث على الطريقة الامريكانية

يعقد فى قفص حيوانات